

تفسير المرآة الخفية

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثالثون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثامن

سورة النبأ

هي مكية ، وعدد آياتها أربعون ، نزلت بعد سورة المعارج .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السابقة أن الكافرين كذبوا به .

(٢) أن في هذه وما قبلها تأنيبا وتقريعا للمكذبين ، فهناك قال : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » وهنا قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » .

(٣) أن في كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

(٤) أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال : « لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » . وهنا قال : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
 سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
 مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) .

شرح المفردات

عمّ : أى عن أى شىء ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا ، والنبأ : الخبر الذى
 يُعنى به ويهتم بشأنه ؛ والمراد به خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين ،
 كلاً : كلمة تفيد ردّ ماتقدم من الكلام ونفيه ، والمهاد : (بكسر الميم) والمهد فى نحو
 قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مِهَادًا » : المكان المهدى المذل ، والأوتاد :
 واحدها وتد ؛ وهو ما يثق فى الأرض ليربط إليه الجبل الذى تشد به الخيمة ، والأزواج :
 واحدها زوج ؛ ويطلق على الذكر والأنثى ، والسبات : (بضم السين) قطع الحركة
 لتحصيل الراحة ، واللباس : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه ، معاشا :
 أى وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة ، سبعا شدادا : أى سبع سموات قوية محكمة
 لا فطور فيها ولا تصدّع ، والسراج : ما يضيء وينير ، والهواج : المتلاطى ، والمراد
 به الشمس ، والمعصرات : السحاب والغيوم إذا أعصرت : أى حان وقت أن تعصر

الماء فيسقط منها ، والنجاج : كثير الانصباب عظيم السيالان ؛ والمراد به المطر ، والنجج : سيلان دم الهدى ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله العَجَّ والنَّجَّج » والبعج : رفع الصوت بالتلبية ، والنجج : إزاحة دم الهدى ، والحب : ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ، والنبات : ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش ، والجنات : واحدها جنة ، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل ، والجنات الألقاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف (بكسر اللام وفتحها) وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف ككشريف وأشراف .

المعنى الجملى

كان اشركون كلما اجتمعوا فى ناد من أنديتهم أخذوا يتحدثون فى شأن الرسول وفيما جاء به ويسأل بعضهم بعضا ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء ؟ ، ويتحدثون فى شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ماشاء له هواه ، والرسول سائر قُدُما فى تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه المنير الذى يضىء للناس سبيل الرشاد ، وهو كتابه الكريم ، كما كانوا يتحدثون فى شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ؛ فمنهم من ينكرونه البتة ، ويزعمون أنهم إذا ماتوا انتهى أمرهم ، وما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبيع ، وما يهلكنا إلا الدهر ؛ ومنهم من كانوا يزعمون أنهم إنما تبعث أرواحهم لا أجسامهم بعد أن تأكلها الأرض ، وتبعث بها يد البلى .

وربما لقى أحدهم بعض من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فيسأله عن ذلك استهزاء وسخرية .

وفى هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ردًا عليهم وتكذيبا لهم ، وإقامة للحجة ؛ على أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم وإن صاروا ترابا ، أو أكلتهم السباع ،

أو اختوتهم البحار فكانوا طعاما للشياك ، أو أحرقتهم النيران فطاروا مع الريح .
وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أموراً تسعة يشاهدونها بأعينهم لا يخفى عليهم
شيء منها :

- (١) انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام .
- (٢) سموق الجبال صاعدة في الجو .
- (٣) تنوع الآدميين إلى ذكور وإناث .
- (٤) جعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال التي يزاولها عامة نهاره .
- (٥) جعل الليل ساتراً للخلق .
- (٦) جعل النهار وقتاً لشئون الحياة والمعاش .
- (٧) ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع .
- (٨) وجود الشمس المنيرة المتوجهة .
- (٩) نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات .

فكل ذلك داع لهم أن يعترفوا أن من قدر على كل هذا فلا تعجزه إعادتهم
إلى النشأة الآخرة .

الإيضاح

(عمّ يتساءلون ؟) أى عن أى شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم ؟
روى عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث
فيها بينها ، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به ، فنزلت : عمّ يتساءلون .
ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(عن النبيا العظيم ، الذى هم فيه مختلفون) أى عن الخبر العظيم الشأن الذى
اختلفوا في أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم بقوله : « إن منى إلا

حَيَاتِنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» ومن شاكٍ فيه بقوله : « مَا نَدْرِي بِمَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ » .

وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ، وتثبيت الجواب في نفس السائل كما جاء في قوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . ثم أخذ سبحانه يرد عليهم متوعدا لهم فقال :

(كلا سيعلمون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون ، وتنقطع عنهم الريبة ، حين يُسأل كل عامل عما عمل ، ويفصل بين الخلائق .

وقصارى ذلك - فليردجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حلّ بهم العذاب والنكال ، وأن ما يتساءلون عنه ، ويضحكون منه حق لا شك فيه ولا ريب .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :

(ثم كلا سيعلمون) وفي تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد . ثم شرع يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون ، مع أنها بين أعينهم فى كل حين فقال :

(١) (ألم نجعل الأرض مهاداً) أى كيف تنكرون أو تشكون فى البعث ، وقد عاينتم ما يدل عليه من قدرة تامة ، وعلم محيط ، وحكمة باهرة تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثاً ، فمن ينعم بهذه النعم لا يهملها سدى .

انظروا إلى الأرض التى جعلت ممهدة موطأة للناس والدواب ، يقيمون عليها ويفترشونها وينتفمون بخيراتنا الظاهرة والباطنة .

(٢) (والجبال أوتادا) أى وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كى لا تميل بأهلها ، وتضطرب بسكانها ، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، فلا تتم الحكمة فى كونها مهادا لهم .

(٣) (وخلقناكم أزواجا) أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ، ليم الاتناس والتعاون على سعادة المعيشة ، وحفظ النسل وتكيله بالتربية والتعليم .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) (وجعلنا نومكم سباتا) أى وجعلنا نومكم فى الليل قطعاً للمتعاب التى تكابدونها فى النهار ، سعياً فى تحصيل أمور المعاش ؛ فالشاهد أن فى نوم بضع ساعات فى الليل راحة للقوى من تعبها ، ونشاطا لها من كسلها ، وإعادة لما فقد منها ، ولولا ذلك لفقدت القوى ، وانقطع المرء عن العمل فى شؤون الحياة المختلفة .

(٥) (وجعلنا الليل لباسا) أى وجعلنا الليل بظلامه ساترا للأجسام ومغطياً لها كاللباس الذى يغطى الجسم ويستتره . ووجه المنة فى ذلك — أن ظلمته تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو إخفاء لما لا يجب أن يطلع عليه غيره ، والله در المنى :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخبرُ أن الما نوية تكذب^(١)

(٦) (وجعلنا النهار معاشا) أى وجعلناه وقتنا لتحصيل أسباب المعاش ، لأن الناس يتقلبون فيه فى حوائجهم ومكاسبهم .

(٧) (وبدينا فوقكم سبعا شادا) أى سبع سموات قوية الأثر ، بحكمة النسيج والوضع ، لا يؤثر فيها كثر الغداة ولاسر العشى ، ليس بها تصدع ولا فطور .

(٨) (وجعلنا سراجا وهاجبا) أى وأنشأنا الشمس سراجا متلأثا بالغا الغاية فى الضوء والحرارة .

(١) الما نوية : طائفة تعتقد أن الخير من النهار والشر من الليل .

وقد جعل الله في هذا الكوكب سر الحياة ؛ فالحرارة والضوء يطردان الأمراض ويُنْعِشان كل حي ، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوءها وحرارتها ، والجرائم لاتتوالد إلا حيث يحتاج عنهما السكان ، ويتعدان عن المكان .

(٩) (وأزلنا من المعصرات ماء نجاسا) أى وأزلنا من السحاب والغيوم التي تتحلب بالمطر ماء كثير السيلان ، عظيم الانصباب . ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال :

(لتخرج به حيا ونباتا . وجنات ألقافا) أى لتبديل بوساطته جذب الأرض خصيا ، فتخرج من الأرض حيا يفتت به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تفتت به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله في هذه الآية جميع أنواع ماتنتبه الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذاساق أولا ؛ والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديدية ؛ والثاني إما أن يكون له أكام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحدائق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

وقال الفراء : الجنة مافية النخيل ، والفردوس مافية النكرم .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَاءً بَارًّا (٢٢)
لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا

وَنَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا
فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠).

شرح المفردات

يوم الفصل : هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين
الخلائق ، ميقاتا : أى حدًا تنتهى عنده الدنيا ، والصور فى الأصل : البوق الذى ينفخ
فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجمعوا عند
النافخ ، والأفواج : واحدها فوج وهو الجماعة ، وفتحت السماء : أى انشقت
وتصدعت ، وسيرت الجبال : أى زالت من أماكنها وتفتتت صخورها ، سرايا :
أى كالسراب ، ففى بعد تفتتها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبارا متراكما ،
المرصاد : موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، للطاغين : أى للذين ظفوا
فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره ، والمآب : المرجع ، لآبئين : أى مقيمين ، أحقبا ،
واحدها حُقب ، وواحد الحقب حِقْبَةٌ : وهى مدة مبهمه من الزمان . قال متمم
ابن نويرة :

وكننا كندمانى جَدِيمَةً حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكنا اطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والبرد: برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم «منع البرد البرد» أى أصابه
من شدة البرد ما منعه النوم ، ولا شرابا : أى شرابا يسكن عطشهم ويزيل الحرقة
عن بواطنهم ، والحميم : الماء الحار المغلى ، غساقا : أى قيحا وصديدا وعرقا دائم
السيلان من أجسادهم ، وفاقا : أى وفق أعمالهم السيئة ، لا يرجون : أى لا يتوقعون ،

حساباً : أى محاسبة على أعمالهم ، أو ثواب حساب ، كذّاباً : أى تكذيباً ، وقرئ
بالتخفيف بمعنى كذبا ، وعليه قول الأعشى :

فصدّقَتْهَا وكذَّبَتْهَا والمرء ينفعه كذّابُهُ

كتاباً : أى إحصاء بالكتابة .

المعنى الجملى

بعد أن نبه عباده إلى هذه الظواهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ،
أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله وهو يوم الفصل ، ويذكر لهم
بعض ما يكون فيه تخويفاً لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة
واستبان الحق ، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير
ماتمهدون ، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزواً ، وأن
جهنم مرجعهم الذى ينتهون إليه ، وأنهم سيقومون فيها أحقاباً طويلاً لا يجدون شيئاً
من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها رَوْحاً ينقّس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من
الشراب إلا الماء الحارّ والصديد الذى يسيل من أجسادهم ، جزاء سبب أعمالهم ،
إذ هم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ومن ثم اقترفوا السيئات ، وارتكبوا مختلف
المعاصى ، وكذبوا الدلائل التى أقامها الله على صدق رسوله أشدّ التكذيب ، وقد
أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء صدر منهم ، وسيفيهم
جزاء ما صنعوا ، وستكون له كلمة الفصل ، فيقول لهم : « ذُوقُوا فَلَنْ تَرِيدَ كُمْ
إِلَّا عَذَابًا » .

الإيضاح

(إن يوم الفصل كان ميقاتاً) أى إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين والآخرين
يثابون فيه أو يعاقبون ، ويتميزون فيه ويكونون مراتب ودرجات بحسب أعمالهم كما
قال : « وَأَمَّا نَزْوَا الْيَوْمَ فَأُنَبِّئُ الْمُجْرِمُونَ » .

وقد جعله الله حداً تنتهي عنده الدنيا ، وتجتمع فيه الخلائق ، ليرى كل امرئ ما قدمت يده ، فيجازي المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .
ثم بين هذا اليوم وزاد في تفخيمه وتهويله فقال :

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) أى يوم ينفخ في الصور فتحيون وتبعثون من قبوركم وتأتون إلى الموقف من غير تلبث ، وإمام كل أمة رسولها كما قال سبحانه «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ» .

(وفتحت السماء فكانت أبواباً) أى وانشقت السماء وتصدعت ، وقد جاء نحو هذا في آيات كثيرة كقوله : «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» ، وقوله : «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» وقوله : «وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالنِّعَمِ» .

ذاك أنه يحصل اضطراب في نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب ، لا يلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب العالم العلوى ، كما يخرب الكون السفلى .

(وسيرت الجبال فكانت سراباً) أى إن الجبال لا تكون في ذلك اليوم على ثباتها المعروف ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعد ، فإذا قربت منه لم تجد شيئاً ، لتفرق أجزائها وانثاث جواهرها .

والخلاصة — إنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، فذكر أول أحوالها وهو الاندكاك بقوله : «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً» ثم ذكر أنها تصير كالهمن المنفوش كما قال : «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ» ثم ذكر أنها تصير هباء كما قال : «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا» ثم ذكر أنها تنسف وتحملها الرياح كما جاء في قوله : «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» ، ثم ذكر أنها تصير سراباً ، أى لاشيء كما في هذه الآية .

وبعد أن عدّد وجوه إحسانه ، ودلائل قدرته على إرساله رسوله ، وذكر أن يوم الفصل بين الرسول ومعاذيه سيكون يوم القيامة ، وبين أهوال هذا اليوم ، وامتياز شؤنه وأحواله عن شئون أيام الدنيا وأحوالها — ذكر وعيد المكذبين وبيان ما يلاقونه فقال :

(إن جهنم كانت مرصادا) أى إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزئها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وفعاله .

وروى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

(للطاغين مأبأ) أى إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا ولم يستمعوا إلى الداعى الذى جاءهم بالهدى ونور الحق .

وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بين مدة ذلك فقال :

(لابئين فيها أحقابا) أى إنهم سيمكثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر كما قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخَارَجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميا وعساقا) أى لا يذوقون فى جهنم بردا يبرد حر السمير عنهم إلا الفساق ، ولا شرابا يرويههم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقه من بواطنهم ، ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستقدرة .

والتلخيص — إنهم لا يذوقون فيها شرابا إلا الحميم البالغ الغاية فى السخونة ، أو الصديد المنين ، ولا برداً إلا الماء الحار المغلى .

(جزاء وفاقاً) أى إنه تعالى ينزل بهم شديد عقابه من جراء أنهم أنوا بقطع المعاصى ، فيكون العقاب وفق الذنب ومقداره كما قال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فاتاهم الله ما يسوءهم . وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعد لهم كان وفق جزئهم — فصل أنواع جرائمهم فذكر أنها نوعان فقال :

(١) (إنهم كانوا لا يرجون حساباً) أى إنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا ، واخترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم ، لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب ولا يتوقعونه .

ورغبة المرء في فعل الخيرات ، وترك المحظورات ، إنما تكون غالباً لاعتقاده أنه ينتفع بذلك في الآخرة ، فمن كان منكراً لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولا يحجم عن أمر مما يقبح .

(٢) (وكذبوا بآياتنا كذاباً) أى وكذبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد وجميع ما جاء في القرآن .

والخلاصة — إنهم أقدموا على جميع المنكرات ، ولم يراعوا عن فعل السيئات وأنكروا بقلوبهم الحق واتبعوا الباطل .

وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية — أرشد إلى أنها في مقدارها وكيفية معلومة له تعالى لا يغيب عنه شيء منها فقال :

(وكل شيء أحصيناه كتاباً) أى إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً لا يعتره تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يحددوا شيئاً مما كانوا يصنعون في الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأننا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شيء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوْءُ » .

وإنما قيل (كتابا) دون أن يقال (إحصاء) لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم بالشيء ، فإن من يريد أن يحصى كلام متكلم حتى لا يغيب منه شيء عمد إلى كتابته ، فكأنه تعالى يقول : « وكل شيء أحصيناه إحصاء يساوي في ثباته وضبطه ما يكتب » .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات — رتب عليه هذا الجزاء فقال :

(فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) أي فذوقوا ما أتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال : « وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .
 روى قتادة عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ذاك أن فيها تقريرا وتوبيخا لهم في يوم الفصل ، وغضبا من أرحم الراحمين ، وتبئيسا لهم من الغفران .

إِنَّ الْمَشْقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)
 وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ
 رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦) .

شرح المفردات

مفازا : أي فوزا بالنعيم والثواب ، حدائق : أي بساتين فيها أنواع الثمر والشجر
 وأعنابا : واحدها عنب ، وكواعب : واحدها كاعب ، وهي التي نهت ثديها وتكعبها ،
 والأتراب : واحدهن ترب ، وهي التي سنها من سن صاحبيتها ، والكأس : إناء
 من بلور للشراب ، دهاقا : أي ممتلئة ؛ يقال أدهق الحوض : أي ملأه . قال خدش
 ابن زهير :

أمانا عامر يبغى قرانا . فأترعنا له كأسا دهاقا .
واللعو: الباطل من الكلام ، والكذاب : التكذيب ، عطاء : أى تفضلا منه
وإحسانا ، حسابا : أى كافيا لهم ، تقول أعطاني فلان حتى أحسبني : أى حتى
كفاني بعطائه . قال :

فلما حلتُ به ضمتي فأولى جميلا وأعطى حسابا
أى أعطى ما كفى .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التى وصفها
ووصف ما فيها ، وذكر أنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لعوالى المهتم ،
يدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وازديادهم من القربات والطاعات ، كأن فيها
إيلا ما لأنفس الضالين المكذبين .

الإيضاح

(إن للمتقين مغازاً) أى إن لمن اتقى محارم الله وخاف عقابه فوزاً بالكرامة
والثواب العظيم ، فى جنات النعيم .

ثم فسر هذا الفوز وقضه فقال :

(حدائق وأعنابا) أى بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار ، لها
أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقرّ
به العيون .

وقد أفردت بالذكر وهى مما يكون فى الحدائق عنفاية بأمرها كما جاء فى قوله :

« مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

ثم وصف ما فى الحدائق والجنات فقال :

(وكواعب أترابا) أى وهوراً كواعب لم تتدلّ تُدبهن ، وهنّ أبقار عُرب

أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لانعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به ، وأنه تتمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشا كل أحوال العالم الأخرى .

(وكأسا دهاقا) أى وكأساً من الخمر مترعة ملاءى متتابعة على شاربها .

(لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) أى لا يجرى بينهم حين يشربون — لغو الكلام ولا يكذب بعضهم بعضاً ، كما يجرى بين الشرب فى الدنيا ، لأنهم إذا شربوا لم تغتر أعصابهم ، ولم تتغير عقولهم كما قال تعالى : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » ، واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين .

ولما ذكر أنواع النعيم بين أن هذا جزاء لهم على ما عملوا ، وتفضل منه سبحانه فقال :

(جزاء من ربك عطاء حسابا) أى جازاهم الله به وأعطاهم به بفضله وإحسانه عطاء كافياً وافياً .

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) .

شرح المفردات

الخطاب : المخاطبة والمكاملة ، الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام ، والمآب : المرجع ، والإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ، والمرء : الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، ما قدمت يدها : أى ما صنعه فى حياته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن يوم القيامة موعد للفصل بين الخلائق ، وتنتهى به أيام الدنيا ، وأن دار العذاب معدة للكافرين ، وأن الفوز بالنعيم للمتقين ؛ أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفاً صفاً لا يتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولاً صحيحاً .

ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، وأن الناس فيه فريقان : فريق بعيد من الله ومرجعه إلى النار ، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة ؛ فمن كانت له مشيئة صادقة ، فليتخذ مآباً إلى ربه ، وليعمل عملاً صالحاً يقر به منه ، ويحمله محل كرامته .

ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلون غداً ما قدمت أيديهم ويرونه حاضراً لديهم ، وحينئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا نرايا لم نصب حظاً من الحياة .

الإيضاح

(رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) أى إنه سبحانه المالك لشيئهما ، المدبر لأمرهما ، ولا يملك أحد من أهلها مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

(يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) أي إن الملائكة على جلاله أقدارهم ، ورفع درجاتهم لا يستطيعون أن يتكلموا في هذا اليوم ، إجلالاً لربهم ، ووقوفاً عند أقدارهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم ، وقالوا قولاً صدقاً وصبواً .

وفي الآية دلالة على أنهم مع قريتهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن له ربه ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب ، لأنه يقول الصواب ، وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يأذن له ويختص به ، ولا أثر له فيما أرادته البتة .

والملائكة مخلوقات غيبها الله عنا ، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها ، فعلمنا أن تؤمن بها وإن لم نرها ، ونصدق بما جاء في كتابه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها .

وبعد أن ذكر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب ، وبين عظمة يوم القيامة — أردف ذلك بيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه فقال :

(ذلك اليوم الحق) أي ذلك اليوم متحقق لا ريب فيه ولا مفر منه ، وأنه يوم تبلى فيه السمائر ، وتتكشف فيه الضمائر ، أما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتوبة ، وضمائرهم غير معلومة .

(فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) أي فمن شاء عمل صالحاً يقربه من ربه ، ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه .

ثم زاد في تخويف الكفار وإنذارهم فقال :

(إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) أي إنا نحذركم عذاب يوم القيامة وهو قريب ، لأن كل ما هو آت قريب كما قال : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

وإنهم ليجدون مقدماته إذا فارقت الروح البدن ، فإنه يتكشف لهم ما كان ينتظروهم ، ولا يزالون منه في ألم إلى أن يلاقوا ربهم .

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أى هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ما صنعه في حياته الأولى من الأعمال ، فإن كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له وحسن مأب ، وإن كان قد كذب به ورسوله فله الويل وأليم العذاب .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) أى ويقول الكافر من شدة ما يلحقه ومن هول ما يرى: ليتنى كنت ترابا، يريد: ليتنى لم أكن من المكلفين ، بل كنت حجرا أو ترابا لا يجرى عليه تكليف حتى لا يعاقب هذا العقاب .

وفي الآية إيماء إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه .
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ما اشتملت عليه هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على الموضوعات الآتية :

- (١) سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام .
- (٢) تهديد المشركين على إنكارهم إياه .
- (٣) إقامة الأدلة على إمكان حصوله .
- (٤) أحداث يوم القيامة .
- (٥) ما يلاقيه المكذبون من العذاب .
- (٦) فوز المتقين بجنات النعيم .
- (٧) إن هذا اليوم حق لا ريب فيه .
- (٨) إنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتمقيهم في ذلك اليوم أن لو كانوا ترابا .

سورة النازعات

هى مكية ، وآيها ست وأربعون ، نزلت بعد سورة النبأ .
 ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن
 البعث حق لا ريب فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)
 فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)
 تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)
 يَقُولُونَ: أَأُنثْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ (١٠) أَأُنذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١)
 قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا
 هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) .

شرح المفردات

والنازعات : أى الكواكب الجاريات على نظام معين فى سيرها كالشمس
 والقمر ، يقال نزع الخليل : إذا جرت ، غرقا : أى مجدة مسرعة فى جريها ، لتقطع
 مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى الغرب ، والناشطات نشطا : أى الخارجات من
 برج إلى برج ، من قولهم : نشط النور إذا خرج ، والسابحات سبحا : أى السائرات
 فى أفلاكها سيرا هادئا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وقد جعل مرورها فى جوائها
 كالسبح فى الماء كما جاء فى قوله : « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » والسابقات سابقا :

أى السرعات عن غيرها فى سبحها ، فتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتم غيرها كالقمر فإنه يتم دورته فى شهر قمرى ، والأرض تتم دورتها فى سنة شمسية ، وهكذا غيرها من السيارات السريعة ، ومنها ما لا يتم دورته إلا فى سنين ، فالمدبرات أمرا : أى فالكواكب التى تدبر بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى بظهور بعض آثارها ، فسبق القمر علمنا حساب شهره ، وله الأثر العظيم فى السحاب والمطر وفى البحر من المد والجزر ، ولضياءه حين امتلائه فوائده فى تصريف منافع الناس والحيوان ، وسبق الشمس فى أبراجها علمنا حساب الشهور ، وسبقها إلى تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين ، وخالف بين فصول السنة ، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، وقد نسب إليها التدبير ، لأنها أسباب ما نستفيدة منها ، والمدبر الحكيم : هو الله تعالى جل شأنه .

وترجف : أى تضطرب وتمحرك ، والراجفة : الأرض بمن عليها ، والرادفة : السماء وما فيها تدفها وتتبعها ، فإنها تنشق وتثركواكبها ، الواجفة : أى الشديدة الاضطراب ، خاشعة : أى ذليلة ، الحافرة : الحياة الأولى ، أى الحياة بعد الموت وقد ظنوها حياتهم الأولى ، يقال رجع فى حافرته : أى فى طريقته التى جاء فيها ، والنخرة : البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح ، والكررة : الرجعة ، من الكرة ، وهو الرجوع ، والخاسرة : هى التى يخسر أصحابها ولا يرجعون ، والزجرة : الصيحة ، والمراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات ، والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، لأن السراب يجرى فيها ، وسميت بذلك لأن شدة الخوف التى تعترى من عليها تطير النوم من أعينهم فلا يذوقون نوما ، فهى ساهرة : أى ساهر من عليها .

المعنى الجملى

يبدأ سبحانه هذه السورة بالخلف بأصناف من مخلوقاته - إن ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعرض الخلائق على ربهم ، لينال كل عامل

جزاء عمله - حق لاريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال ، وتضطرب القلوب ،
وتخشع الأبصار ، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلى حياتهم الأولى بعد أن كانوا
عظاما نخرة تمر فيها الرياح ، ويتحتمون أن صفتهم كانت خامرة ، إذ أنهم أنكروا
في الدنيا معادهم ، ويجابون على تعجبهم ألا يحسبوا أن الإحياء صعب على الله ،
فما الأمر عنده إلا صيحة واحدة ، فإذا الناس جميعا ظاهرون في أرض المعاد .

لو تدبرنا أمر القسم ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم لوجدناه يرجع
إلى أحد أمرين :

(١) أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس ، وقوى
سلطانها في نفوسهم ، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر
في نحو قوله : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاكُمَا » وقد ذكر سبحانه بجانب
ذلك بعض صفاتها الدالة على أنها مخلوقة له كتغيرها من حال إلى حال ، وما يطرأ
عليها من الأقول والزوال ، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة .

(٢) أن تكون مما احتقره الناس لغلطهم عن فائدته ، وذهولهم عن موضع
العبرة فيه ، ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة ، وبديع الحكمة لاهتدوا
إلى معرفة خالقه ، ونعتوه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

فأقسم سبحانه على التوحيد في قوله : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا .
فَالسَّائِبَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وأقسم على أن الرسول حق بقوله : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وأقسم إن القرآن حق في قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » .

وحلف إن الجزاء حق ، وإن الناس سيبعثون إلى ربهم ، وإن كلا منهم سيلاقى جزاء عمله كما قال : « وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا . فَأَلْحَامَاتِ وِقْرًا . فَأَجْنَابَاتِ بَشِيرًا . فَأَلْمُسَمَّاتِ أُمْرًا . إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لِصَادِقٍ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » .

الإيضاح

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) افتتح سبحانه هذه السورة بالقسم بالكواكب والنجوم والشموس والأقمار ، إظهارا لعظم شأنها ، وإتقان نظامها ، وغزارة فوائدها ، وأنها مسخرة لياربها ، خاضعة لأمره - لتبعين بعد الموت ، ويدل على هذا ما حكاه عنهم بعد من قولهم : « أُنْذِرْنَا كُنُفًا عِظَامًا نَحْرَةً ؟ » أى أنيئت إذا صرنا كذلك ؟ (يوم ترجف الراجفة) أى حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال ، فيسمع لها صوت شديد .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » . (تتبعها الرادفة) أى تتلوها السماء بما فيها من كواكب ، إذ تنشق وتنثر كواكبها إثر اضطراب الأرض وميّدانها .

عن أبي بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها ، وهى التى يقول الله فيها - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » .

(قلوب يومئذ واجفة) أى قلوب يومئذ مضطربة قلقا خائفة ، والمراد بها

قلوب الكفار ، ذلك أنهم بعد أن عاينوا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره لهم ويشاهدونه في دنياهم ولم يؤمنوا به ، اضطرب نفوسهم ، مخافة أن يجعل بهم ما أُنذروا به ، كما هي حال من تهدهد بمقوبة إن لم يُقلع عن جرأته - يهلع قلبه إن شاهد بوادر التنفيذ .

(أبصارها خاشعة) أي أبصار أصحابها خاشعة تظهر فيها الذلة والخوف .

وقد حكى الله عنهم أقوالا ثلاثة استبعدوا بها أمر البعث ، واستهزؤا فيها بالرسول والمؤمنين :

(١) (يقولون أئنا لمردودون في الحفرة؟) أي يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات ، فراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا ؟
وتقول العرب لكل من كان في أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع إلى حافرته : أي إلى أمره الذي كان فيه أولا .

(٢) (أئذا كنا عظاما نحرة؟) أي أنرد إلى الحياة بعد أن نصير عظاما بالية لو لمست لتفتت؟

(٣) و(قالوا تلك إذا كرة خاسرة) أي إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نحرة ، فنحن إذا خامرون ، لأننا كذبنا به ولم نأخذ المدّة له ، فياويلنا في هذا اليوم ! .

وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادا منهم أن ذلك لن يكون .
وقد ردّ الله عليهم مقالاتهم بقوله :

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) أي لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرا شاقّا علينا ، فإنما هي صيحة واحدة ، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتى فإذا الناس كلهم على سطح الأرض أحياء .

ونحو الآية قوله : « وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِّمَّا هُنَّ مِنْ فَوَاقِي » .

وخلاصة هذا — لا تحسبوا أن هذه الرجعة عسيرة شاقة علينا ، فما أعادكم التي ظننتموها صعبة إلا أن أمر ملكا من ملائكتنا أن يضح صيحة واحدة ، فإذا أنتم جميعا لدينا محضرون ، لا يتخلف منكم أحد ، ولا يستطيع التخلف إن أراد .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْكُشْبَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَخَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَارُبُكُمْ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)

شرح المفردات

المقدس : أى المبارك المطهر ، والوادي المقدس : هو وادٍ بأسفل جبل طور سينا من بركة الشام ، طوى : وادٍ بين أيلة ومصر ، طغى : أى تجاوز الحد فتكبر على الله وكفر به ، هل لك إلى كذا : أى هل ترغب فيه ، وتزكى : أى تنظف وتنظف من العيوب ، وأهديك : أى أدلك ، فتخشى : أى فتخاف ، والآية الكبرى : أى العلامة الدالة على صدقه في دعواه النبوة ، وهى انقلاب العصا حية ، أذبر : أى ترك

موسى ، يسعى : أى فى مكابذته ، فحشر : أى فجمع السحرة الذين فى بلاده ،
والنكال : العذاب ، والآخرة : يوم القيامة ، والأولى : الدنيا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى العتوِّ
والطغيان ، واستهزأهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك يشق عليه ، ويصعب
على نفسه - ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر ، وبين له أنه قد بلغ
فى الجبروت حدًا لم يبلغه قومك ، فقد ادعى الألوهية وألب قومه على موسى ، وكان
موسى مع هذا كله يحتمل المشاقِّ العظام فى دعوته إلى الإيمان - ليكون ذلك تسليّة
لرسوله عما يلاقيه من قومه من شديد العناد وعظيم الإعراض ، يرشد إلى ذلك قوله :
« فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » .

وفى ذلك عبرة أخرى لقومه - وهى أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمه
وأشد شوكة وأعظم سلطانا ، لما تمرد على موسى وعصا أمر ربه أخذه الله نكال
الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجمله لمن خلفه آية ، فأتى بها القوم
مهما عظمت حالكم وقوى سلطانكم لم تبلغوا مبلغ فرعون ، فأخذكم أهون على
الله منه .

وفى هذا تهديد لهم وإنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله ، فسيفصيهم مثل
ما أصاب فرعون وقومه كما قال فى آية أخرى : « فَإِنِ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَا فِرُونَ » .

الإيضاح

(هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) أى ألم يبلغك حديث موسى مع فرعون وقومه ، وقد أمره الله بالتلطف فى القول ، واللين فى الدعوة إلى الحق ، إقامة للحجة ، والوصول من أقرب محجة ، كما جاء فى سورة طه « قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

فاتبع نهجه ، واسلك سبيله ، يكن ذلك أقرب للفوز ببغيتك ، وبلوغ مطلبك كما فاز موسى وانتصر .

وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادي المطهر المبارك من طور سيناء من برية الشام بعد مضى وقت من الليل .

ثم فصل هذه المناجاة بقوله :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب له وعظه ، فإنه تجاوز الحد وتكبر على الله وكفر به ، وتجبر على بنى إسرائيل ، واستعبدهم حتى بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم .

ثم طلب إلى موسى أن يلين له القول ليكون ذلك أنجح فى الدعوة فقال :

(فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى) أى فقل له : هل يرغب أن تظهر نفسك من الآثام التى انغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات ، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك ، حتى تأمن من عقابه ، إذا أدبت ما ألزمتك به من فرائضه ، واجتنبت ما نهاك عنه من معاصيه .

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ، فاضطر إلى أن يظهر له دليلا يراه ويشاهده فقال :

(فأراه الآية الكبرى) أى فلما لم يقنع بالدليل القولى أظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كذب الداعى ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمرده عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى) أى فكذب موسى ثم ولّى معرضاً عما دعاه إليه من طاعة ربه وخشيته ، وطفق يخبّ في المعاصى ويضع ، غير متدبر في عاقبة أمره ، ولا مفكر في غده .

(فخسر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى) أى فجمع السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه كما جاء في قوله : « وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ » فقام فيهم يقول : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » فلا سلطان يعلو سلطانى ، ولم يزل في عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند خروجهم من مصر فأغرق فيه هو وجنوده ، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله :

(فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) أى فنسكل الله به ولم يكن ذلك النكال مقصورا على ما عذب به في الدنيا من الفرق في البحر ، بل عذبه في الآخرة أيضا في جهنم وبئس القرار .

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) أى إن فيما ذكر لموعظة لمن له عقل يتدبر به في عواقب الأمور ومصايرها ، فينظر في حوادث الماضين ، ويقيس بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها .

ءَأْتَمَّ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)

شرح المفردات

أشد خلقا : أى أصعب إنشاء ، والبناء : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة ، والسماك : قانة كل شيء ،

فسواها : أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه ، أعطش ليها : أى أظلمه ، فجهاها :
أى نورها وضياء شمسها ، دحاها : أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، قال زيد بن عمرو
ابن نفيل :

وأسلت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرها ثقلا

دحاها فلما استوت شدتها بأيدى وأرمى عليها الجبالا

مزاها : أى نباتها ، متاعا لكم : أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن قص على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون وأوما بهذا
القصص إلى أنهم لا يعجزون الذى أخذ فرعون ونكل به وجعله عبرة للباقيين ، وسلى
به رسوله حتى لا يحزن لتكذيب قومه له ، وعدم إيمانهم بما جاءهم به ، أخذ يخاطب
منكرى البعث ، وينبههم إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحدوه ، فإن بعثهم حين إذا
أضيف إلى خلق السموات التى تدل بحسن نظامها وجلالها ، على حكمة مبدعها وعظيم
قدرته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض التى دحاها بعدها وجعلها معدة للسكنى ،
وهيا فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان ، فأخرج منها الماء الذى به حياة كل شىء
وأنتب فيها النبات الذى به قوام الإنسان والحيوان .

المعنى الجملى

(أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) أى أأنتم أيها الناس وقد خلقتم من ماء مهين
ضمافا عاجزين لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة — أصعب إبداعا
وإنشاء أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ .

إنكم لاتنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم تعجز عن إبداعها ،
فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، يرشد إلى ذلك قوله : « نَلْقَى

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ »

وفي هذا من التقرير والتوبيخ ما لا يخفى .

وبعد أن أشار إلى عظم خلق السموات إجمالاً شرع يبين ذلك تفصيلاً فقال :

(بناها . رفع سمكها فسوّاها) أى ضم أجزاءها المتفرقة وربطها بما يمسكها حتى
حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع في خلق الكواكب وجعل كل كوكب
منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه في مداره حتى كان من مجموعها
ما يشبه البناء وهو مانسميه بالسماء .

وقد جعلها ذاهبة في العلوّ صُعُداً ، وعدلها فوضع كل جزء منها في موضعه الذي
يستحقه ويحسن أن يكون فيه .

(وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) أى وجعل ليلها مظلمة بتغيب كواكبها ، وأبرز
نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتماش
الأرواح ما ليس في سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهبط
الأرض للسكنى ومن ثم قال :

(والأرض بعد ذلك دحاها) أى ومهد الأرض بعد ذلك وبسطها للسكنى ،
وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك ، فلا تخالف
هذه الآية ما جاء في سورة السجدة من قوله : « أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي
مِنْ قَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ
اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، والآية التي نحن بصدها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدا لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالأيتان ترشدان إلى أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدا ودحاها ، فأية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه . وهذه الآية حكاية للإصلاح الذي كان بعد الخلق .

ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتى سكنها من أمر الماء كل والمشارب وإمكان القوار عليها فقال :

(أخرج منها ماءها ومرعاها) أى فجّرَ منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات سواء أكان قوتنا لبنى آدم كالحب والتمر ، أم قوتنا للأنعام وللماشية كالشعب والحشيش .

(والجبال أرساها) أى وثبتت الجبال فى أما كتبها وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال :

(متاعاً لكم ولأنعامكم) أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليتمتع به الناس والأنعام من الإبل والغنم والبقر .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيئون ، ورافع السماء فوقكم ، ومهد الأرض تحتكم - قادراً على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبر أمركم هذا التديير المحكم ، ووفر لكم هذا الخير الكثير ؟

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
 مَا سَعَى (٣٥) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)
 وَآمَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ
 خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
 الْمَأْوَى (٤١) .

شرح المفردات

الطامة الكبرى : أى الداهية العظمى التى تطمّ على الدواهي أى تغلب وتملو ،
 وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث قاله ابن عباس ، وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ : أى
 كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان ، طغى : أى تكبر وتجاوز الحد ،
 آثر : أى قدّم وفضل ، المأوى : المستقر ، مقام ربه : أى جلاله وعظمته ، ونهى
 النفس عن الهوى : أى زجرها وكفها عن هواها المردي لها بميلها إلى الشهوات .

المعنى الجملى

بعد أن بين أنه تعالى قادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الأكوان ، بين
 صدق ما أوحى به إلى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ،
 كأن لا بد منه ، فإذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة حين تعرض
 الأعمال على العالمين ، فيتذكر كل امرئ ما عمل ، ويظهر الله الجحيم وهى دار
 العذاب للعيان فيراها كل ذى بصر ، فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على العالمين ؛ فأما
 من تجاوز الحدود التى حدها الله فى شرائعه ، وفضل لذائد الدنيا على ثواب الآخرة
 فدار العذاب مستقره ومأواه ؛ وأما من خاف مقامه بين يدي ربه فى ذلك اليوم ،

وزجر نفسه عن هواها ، فلم تجر وراء شهواتها فالجنة منزله ومأواه ، جزاء ما قدمت يداه .

الإيضاح

(فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى فإذا حل ذلك اليوم الذى تشيب من هول الولادة ، وتشاهد فيه النار ، فينسى المرء كل هول دونها — فصل الله بين الخلائق ، فأدخل الطائمين الأبرار الجنة ، وأدخل المتمردين العصاة النار .
وقد وصف هذا اليوم بوصفين :

(١) (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) أى حين يرى الإنسان أعماله مدونة فى كتابه وكان قد نسىها فتعاوده الذكرى ، كما قال سبحانه : «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ» .
(٢) (وبرزت الجحيم لمن يرى) أى وأظهرت النار حتى يراها كل ذى عينين سواء منهم المؤمن والكافر ، سوى أنها تكون مقراً للكافرين ، وينجى الله المؤمنين .

والخلاصة — إذا جاء ذلك اليوم فصل الله بين الخلائق كما فصله بعد بقوله :
(فأما من طغى) وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى) أى فأما من تكبر وتجاوز الحد وآثر لذات الحياة الدنيا ، وشهواتها على ثواب الآخرة ، فالنار مثواه ومستقره .

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى)
أى وأما من خذرو وقوفه بين يدى ربه يوم القيامة ، وأدرك مقدار عظيمته وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، وجذب نفسه الوقوع فى محارمه ، فالجنة مثواه وقراره .
وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضادان أوصاف الأشقياء :

(١) فقوله : «خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» يقابل قوله : «طَغَى» وقوله : «وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى» يضاد قوله : «وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» وقد مدح الحكماء

مخالفة الهوى فقالوا : إذا أردت الصواب فانظر هواك تخالفه . وقيل لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين . وقيل :

تخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه تنزع به كل منزع .
ومن يطع النفس اللجوجة تُردّه وترم به فى مصرع أى مصرع .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا (٤٥)
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) .

شرح المفردات

الساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، وهى يوم القيامة ، أيان : أى متى ، مرساها : أى إرساؤها ، وإقامتها : أى حصولها ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا : أى فى أى شئ أنت من أن تذكر لهم وقت حصولها ، وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها ، إلى ربك منتهاهَا : أى إن منتهى علم حصولها عند ربك لم يؤته أحدا من خلقه ، واللبث : الإقامة ، والعشية : طرف النهار من آخره ، والضحى : طرفه من أوله .

المعنى الجملى

كان المشركون يسألون الرسول عنادا واستهزاء عن الساعة ، ويطلبون إليه أن يجعل بها كما يرشد إلى ذلك قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » وربما سأله عن تحديد وقتها ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يردد فى نفسه ما يقولون ، ويتمنى لو أمكن أن يجيب عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، الحمد فى الإقناع — فنهاه الله عن تمنى ما لا يرجى ، وأبان له أنه لا حاجة لك إلى ذلك ،

فإن علمها عند ربك ، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبئهم من غفلته ، حتى يستعد لما يلقاه حينئذ ؛ أما هؤلاء المعاندون فدعهم في غوايتهم ، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون ، فإذا جاء هذا اليوم خيّل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلى يوم البعث إلا طرفاً من نهار أوله أو آخره ، ولم يلبثوا نهاراً كاملاً لمفاجأتها لهم على غير استعداد لوقوعها .

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟) أى يسألك أيها الرسول هؤلاء المكذبون بالبعث عن الساعة التى تبعث فيها الموتى من قبورهم ، متى قيامها وظهورها ؟ (فيم أنت من ذكراها؟) أى ماهذه الذكرى الدائمة لها ، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لا تألو جهداً فى السؤال عنها ؟ .

روى عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » .

وتلخيص المعنى — لا تشغل نفسك بهذا الأمر ، ولا تكنها عناء البحث عنه ، واستكناه أسرارها ، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه .

(إلى ربك منتهاها) أى إلى ربك ينتهى علم الساعة ، فلا يعلم وقت قيامها غيره ، ولم يعطه للملك مكرم ، ولا لنبى مرسل .

(إنما أنت منذر من يخشاها) أى إنما أنت رسول مبعوث للإنذار والتخويف ، وتحذير الناس من المعاصى والقبائح ، ولم تكلف علم وقتها ؛ فدع علم ما لم تكلف به ، واعمل ما أمرت به من إنذار من أمرت بإنذاره .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي لِأَيِّحْكُمِهَا لَوْ قُتِلَتْهُمُ الْإِنْسَانُ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ثم قرر ما دل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به ، فقال :

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إن هذا اليوم الذى لجوا فى إنكاره سيقع البتة ، ويرونه بأعينهم ، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت .
 والخلاصة — إنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية ، وتقول العرب : آتيتك العشية أو غداتها ، وآتيتك الغداة أو عشيتها ؛ والمراد أنهم يستقرون مدة لبثهم ، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

موضوعات السورة الكريمة :

- (١) إثبات البعث .
- (٢) مقالة المشركين فى إنكاره والرد عليهم .
- (٣) قصص موسى مع فرعون، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٤) إقامة البرهان على إثبات البعث .
- (٥) أهوال يوم القيامة .
- (٦) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء بحسب أعمالهم فى الدنيا .
- (٧) سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها .
- (٨) نهى الرسول عن البحث عنها واشتغاله بأمرها .
- (٩) ذم المشركين من شدة الهول عن مقدار ما لبثوا فى الدنيا .

سورة عبس

هي مكية ، وآياتها ثنتان وأربعون ، نزلت بعد سورة النجم .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها — وذكر هنا من
ينفعه الإنذار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةُ زَيْرٍ كَى (٣)
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) .

شرح المفردات

عبس : أى قطب وجهه من ضيق الصدر ، وتولى : أى أعرض ، أن جاءه
الأعمى : أى لأجل أن جاءه ، وما يدريك : أى أى شئ يعرفك حال هذا الأعمى ؟
يزكى : أى يتطهر بما يلتن من الشرائع ، يذكر : أى يتعظ ، استغنى : أى بماله
وقوته عن سماع القرآن ، تصدى : أى تتعرض بالإقبال عليه ، يسعى :
أى يسرع ، يخشى : أى يخاف من الفوابة ، تلهى : أى تتلهى وتتغافل .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم عمرو بن قيس ابن خال خديجة ، وكان أعمى
وهو من المهاجرين الأولين . استخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يضى بالاناس
مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال .

وكان من حديثه أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعهم صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعومهم للإسلام ، ويذكروهم بأيام الله ، ويحذروهم بطشه وجبروته ، ويعدهم أحسن الثوبة إن أسلموا ، وهو شديد الحرص على أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ؛ لأنه يعلم أن سيُسلم بإسلامهم خلق كثير ، إذ بيدهم مقادة العرب .

فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله أفرئتني وعلمني مما علمك الله ، وكررت ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، ففكره الرسول قطعه لكلامه ، وظهرت في وجهه الكراهة ، فعبس وأعرض عنه .

وقد عاتب الله نبيه بأن ضعف ذلك الأعمى وقره لا ينبغي أن يكون باعثاً على كراهة كلامه والإعراض عنه ، لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء ، وهو مطالب بتأليف قلوبهم كما قال : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » وقال : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

ولأنه كان ذكياً الفؤاد إذا سمع الحكمة وعابها ، فيتطهر بها من أضرار الآثام ، وتصفو بها نفسه ، أو يذكرونها ويتعظ فيتنفخه العظة في مستأنف أيامه .

أما أولئك الأغنياء فأكثرهم جحدة أغبياء ، فلا ينبغي التصدي لهم ، طمعاً في إقبالهم على الإسلام ، ليتبهم غيرهم .

وقوة الإنسان إنما هي في ذكاء لبه ، وحياته قلبه ، وإذعانه للحق متى لاحت له أماراته ؛ أما المال والنسب ، والحشم والأعوان فهي عواريج تجمي وترتجل ، وتقر حينا ثم تنتقل .

والخلاصة — إنه سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يُقبِلَ على ذى العقل الذكى،
ونهاه أن يتصرف عنه إلى ذى الجاه القوى، فان الأول حتى بطبعه، والثانى غائب
عن حسّه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات يُكرِّم ابن أم مكتوم
ويقبل عليه ويتفقده، ويقول له إذا رآه : أهلا بمن عاتبني فيه ربي، ويسأله هل
لك حاجة ؟

الإيضاح

(عيس وتولى. أن جاءه الأعمى) أى قطب الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه
وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه .

وفي التعبير عنه بالأعمى إشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه
وسلم حين تشاغله بالقوم، وقد يكون ذلك لذكر العلة التى اقتضت الإعراض عنه،
والتعميس فى وجهه؛ فكأنه قيل: إنه بسبب عماء كان يستحق مزيد الرفق والرأفة،
فكيف يليق بك أن تخصه بالغلظة؟

وهذا كما تقول لرجل جاءه فقير فاتمزه وآذاه: أتؤذى هذا المسكين الذى
يستحق منك الشفقة ومزيد الحنان والمطف؟

(وما يدريك لعله يزكى. أو يدكر فتنتفعه الذكرى؟) أى وأى شئ يعلمك حال
هذا الأعمى؟ لعله يتظاهر بما يسمعه منك، ويتلقاه عنك، فتزول عنه أوصار الآنام،
أو يتمظ فتنتفعه ذكراك ومو عظمتك .

والخلاصة — إنك لا تدرى ما هو مترقب منه من ترك أو تذكر، ولو ذرّيت
لما كان الذى كان .

وفي هذا إيحاء إلى أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى
منهم التزكى ولا التذكر .

ثم ذكر أن أمره مع الحاضرين مجلسه انحصر في شيئين :

(١) (أما من استغنى . فأنت له تصدى) أى أما من استغنى بماله وقوته عن الإيمان ، وعما عندك من المعارف التى يشتمل عليها الكتاب المنزل عليك ، فأنت تقبل عليه ، حرصا على إسلامه ، ومزيد الرغبة فى إيمانه .
(وماعليك ألا يزكى ؟) أى وأى عيب عليك فى بقائه كذلك ، وألا يظهر من وسخ الجهالة ؟ فما أنت إلا رسول مبالغ عن الله ، وقد أدبت ما يجب عليك ، فما بالك يشد بك الحرص على إسلامه .

وقصارى ذلك — لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، والاشتغال بدعوتهم ، أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(٢) (وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى) أى وأما من جاءك مسرعا فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ويحذر الوقوع فى الغواية ، فأنت تلهى عنه ، وتتغافل عن إجابته إلى مطلبه .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمِنْ شَاءِ ذِكْرُهُ (١٢) فِي صُحُفٍ
مُكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ
بَرَّةٍ (١٦)

شرح المفردات

كَلَّا : كلمة يقصد بها زجر المخاطب عن الأمر الذى يعاتب عليه ، لئلا يعاوده ، وهنا هو التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى ، تذكرة : أى موعظة ، ذكره : أى اتعظ به ، فى صحف مكرمة : أى مودعة فى صحف شريفة ، مرفوعة : أى عالية القدر ، مطهرة : أى من النقص لا تشوبها الضلالات ، سفرة : واحد من سفار ؛ من سفر بين القوم إذا نصب نفسه وسيطا ليصلح من أمورهم ما فسد .

قال شاعرهم :
 فما أَدع السفارة بين قومي ولا أمشي بفش إن مشيت
 والمراد هنا الملائكة والأنبياء ، لأنهم وسائط بين الله وخلقه في البيان عما يريد ،
 كرام : واحد كرم ، بررة : واحد بارة ، والمراد أنهم كرام على الله ، أطهار
 لا يقارون ذنبا .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه حادث ابن أم مكتوم وعقبه على رسوله فيما كان منه معه ،
 أردف ذلك ببيان أن الهداية التي يسوقها الله إلى البشر على السنة رسله ، ليست من
 الأمور التي يُحتمل لتقريرها في النفوس وتثبيتها في القلوب ، وإنما هي تذكرة يقصد
 بها تنبيه الغافل إلى ماجيل الخلق عليه من معرفة توحيدِهِ ؛ فمن أعرض عن ذلك
 فإنه معاند يقاوم ما يدعوه إليه حسه ، وتنازعه إليه نفسه .

فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك ، لتذكرك به الناس ، وتنبه الغافل ،
 أما أن تحابي القوى المعاند ، ظنا منك أن مداجاته تردّه عن عناده ، فذلك ليس من
 شأنك ، «فذكر إن نعمت الذكري»
 وهذه الهداية أودعها سبحانه في الصحف الإلهية الشريفة القدر ، المطهرة من
 النقائص والعيوب ، وأنزلها على الناس بواسطة ملائكته الكرام البررة .

الإيضاح

(كلا إنها تذكرة) أي ما الأمر كما تفعل أيها الرسول ، بأن تعبس في وجه
 من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتقبل على من استغنى ، بل الهداية المودعة في الكتب
 الإلهية وأجلها القرآن ، تذكير ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آيات ربه .

وقد وُصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل على مالها من عظيم
 الشأن فقال : «فذكر إن نعمت الذكري»

(١) (فمن شاء ذكره) أى إن هذه التذكرة بيّنة ظاهرة ، فلو أن إنسانا أراد أن يتدبرها ، ويتنهم معناها ، ويتعظ بها ، ويعمل بموجبها — لقدّر على ذلك واستطاعه ، ولا يمنعُه عن الاهتداء بها إلا عدم المشيئة عنادا واستكبارا .

(٢) (فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة) أى وقد أودعت هذه التذكرة فى الكتب الإلهية ذات الشرف والرفعة ، المطهرة من النقائص ولا تشوبها شوائب الضلالات ، تنزل بواسطة الملائكة على الأنبياء ، وهم يبلغونها للناس .

وكل من الملك والنبي سفير ، وكل منهما رسول ، والملائكة كرام على الله كما قال : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » وأبرار أطهار لا يقارفون ذنبا ، ولا يجترحون إثما ، كما قال سبحانه : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)

شرح المفردات

قدره : أى أنشأه فى أطوار وأحوال مختلفة ، طورا بعد طور ، وجالا بعد جال ، والسبيل : الطريق ، يسره : أى سهل له سلوك سبيل الخير والشر ، فأقبره : أى جعل له قبرا يوارى فيه ، أنشره : أى بعثه بعد الموت ، كلا : زجر له عن ترفعه وتكبره .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال القرآن وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة ، وأن فى استطاعة كل أحد أن ينتفع بعبادته لو أراد — أردف هذا ببيان أنه لا يسوع للإنسان مهما

كثير ماله ، ونبه شأنه ، أن يتكبر ويتعاضم ويعطى نفسه ماتهواه ، ولا يفكر في منتهاه ، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخالق والإيجاد ، وصوره في أحسن الصور ، في أطوار مختلفة ، وأشكال متعددة ، ثم لا يلبث إلا قليلا على ظهر البسيطة حتى يعود إلى التراب كما كان ، ويوضع في لحده ، إلى أمد قدره الله في علمه ، ثم يبعثه من قبره ، ويحاسبه على ما عمل في الدار الأولى ، ويستوفى جزاءه إن خيرا وإن شرا ، لكنه ما أكرهه بنعمة ربه ، وما أبعدته عن اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه !

الإيضاح

(قتل الإنسان) هذا دعاء عليه بأشنع الدعوات على ما هو المعروف في لسانهم ، يقولون إذا تعجبوا من إنسان : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ! والمراد بيان قبح حاله وأنه بلغ حدا من العتو والكبر لا يستحق معه أن يبقى حيا . (ما أكرهه) أي ما أشد كفرانه للنعم التي يتقلب فيها ، وأكبر ذهوله عن مشئوبها ، وعن عمره بها من حين إيجاده ، إلى ساعة معاده ! ثم شرع يفصل ما أجمله ، ويبين ما أفاض عليه من النعم في مراتب ثلاث ، المبدأ والوسط والمنتهى ، وأشار إلى الأولى بقوله :

(من أي شيء خلقه؟) أي من شيء حقير ، فلا ينبغي له التجبر ولا التكبر . وقد أجاب عن هذا الاستفهام بقوله : (من نطفة خلقه قدره) أي خلقه من ماء مهين ، وقدره أطوارا وأحوالا ، طورا بعد طور وحالا بعد حال ، وأتم خلقه بأعضاء تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصرفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود بحسب ما يقتضيه كمال نوعه .

وقد أثر عن بعضهم : كيف يتكبر الإنسان ، وأوله نطفة مَذْرَة ، وآخره جيفة
تَقْدِرَة ، وهو فيما بين الوقتين شمال عَذْرَة .

وروى عن عليّ كرم الله وجهه قوله : كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع
البول مرتين .

وأشار إلى المرتبة الوسطى بقوله :

(ثم السبيل يسره) أى ثم جعله متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فآتاه
قدرة العمل ، ووجهه العقل الذى يميزه بين الأعمال ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته
كما قال : « وَهَدَيْتَاهُ النَّجْدَيْنِ » وبعث إليه الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل
معهم الكتب المشتملة على الحكم والمواعظ والدعوة إلى أنواع البر ، والتحذير من
الشر ، والحاوية لما فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم .

وأشار إلى المرتبة الأخيرة بقوله :

(ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) أى ثم قبض روحه ولم يتركه مطروحا
على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل فى غريزة نوعه أن يوارى ميته
تكرمة له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء فى الوقت الذى قدره
فى علمه .

وفى قوله : « إذا شاء » إشعار بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا هو ، فهو الذى
استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيره ، وهو القاهر فوق عباده وذو السلطان
عليهم فى إحيائهم وإماتتهم ، وبهتهم وحشرهم ، وحسابهم على ما قدموا من عمل ،
خيرا كان أو شرا .

ثم أكد كفرانه بالنعيم فقال :

(كلا لما يقض ما أمره) أى حقا إن حال الإنسان لتدعو إلى العجب ، فإنه
بعد أن رأى فى نفسه مما عددناه من عظيم الآيات ، وشاهد من جلائل الآثار ،

ما يحرك الأنظار ، ويسير بها إلى صواب الآراء ، وصحيح الأفكار - لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل قدرته ، والتدبر في معالم هذا الكون المنبثة بوحداية خالقه ، الناطقة بأن لها موقدا يستحق أن يقصده وحده دون سواه ، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به .

والخلاصة - إن الإنسان قد بلغ في جحده آيات خالقه مبلغا لا ينتهي منه العجب ، إذ قد رأى في نفسه وفي السموات والأرض وسائر ما يحيط به من العوالم ، الآيات الناطقة بوحداية الخالق ، الدالة على عظيم قدرته ، ثم هو لا يزال مستمرا في نكران نعمته عليه ، فإذا ذكر لا يتذكر ، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال يرتكب ما نهى عنه ، ويترك ما أمر به .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) .

شرح المفردات

القضب : الرطبة وهي ما يؤكل من النبات غضا طريا ؛ وسمى قضبا لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى ، غلبا : واحدها غلباء أى ضخمة عظيمة ، والأب : المرعى لأنه يُؤب : أى يُؤم وينتجع ، متاعا لكم ولأنعامكم : أى أنبتناه لكم لتتمتعوا به وتتنفعوا وتنتفع أنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى وهى كائنة فى نفسه ، يراها فى يومه بعد أمسه - أردفها ذكر الآيات المنبئة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه ، وباهر حكمته .

الإيضاح

(فلينظر الإنسان إلى طعامه) أى فليتدبر الإنسان شأن نفسه ، وليفكر فى أمر طعامه وتدييره وتهيته حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيتة ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة التى قدرت له .

وقد فصل ذلك بقوله :

(أنا صببنا الماء صبا) أى أنزلناه من المزن إنزالا بعد أن بقى حيناً فى جو

السماء مع ثقله .

(ثم شققنا الأرض شقا) أى ثم شققنا الأرض شقا مشاهداً مرئياً لمن نظر

إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء .

وقد اقتضت حكمته ذلك ، ليدخل الهواء والضياء فى جوفها ، ويهيئانها

لتغذية النبات .

ثم ذكر سبحانه ثمانية أنواع من النبات :

(١) (فأنبثنا فيها حبا) كالحنطة والشعير والارز وهو الأصل فى الغذاء .

(٢) (وعنبا) وهو من وجهه غذاء ، وفاكهة من وجه آخر .

(٣) (وقضبا) وهو كما قال ابن عباس والضحاك ومقاتل واختاره القراء

وأبو عبيدة والأصمعى - الرطبة : هى ما يؤكل من النبات غصاً طرياً .

(٤ ، ٥) (وزيتونا ونخلًا) وقد تقدم بيان منافعهما ، وسيأتى أيضا .

(٦) (وحدات غلبا) أى وبساتين ذات أشجار ضخمة مشمرة ذات حوايط تحيط بها ، وعظم الحدائق إما بالتفاف أشجارها وكثرتها ، وإما بعظم كل شجرة وغلظها وكبرها .

وفي ذكرها بهذا الوصف إيماء إلى أن النعمة فى الأشجار بجملتها ، وليست فى ثمرها خاصة ، فمن خُشْبِهَا يتخذ أرقى أنواع الأثاث وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات ، وكذا الوقود لتدبير الطعام والخبز على ضروب شتى ، وتستعمل فى صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة .

(٧) (وقاكمة) يتمتع بلذتها الإنسان خاصة كالتين والتفاح والخوخ وغيرها .

(٨) (وأبيا) أى مرعى للحيوان خاصة .

ثم ذكر الحكمة فى خلق هذه الأشياء فقال :

(متاعا لكم ولأنعامكم) أى أنبتنا ذلك ، لتتمتعوا به وتنتفعوا به أتم وأنعامكم ،

منه ما ينتفع به الإنسان ، ومنه ما يأكله الحيوان .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ
وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)
وَوُجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ (٤٢) .

شرح المفردات

الصَّخَّ : الضرب بالحديد على الحديد ، وبالمصا الضلابة على شئ مصمت ،
فيسمع إذ ذلك صوت شديد ؛ والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها ،

وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثم سميت صاخة وقارعة ، شأن : أى شغل ، يغنيه : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته ، قال شاعرهم :
 سيفنيك حربُ بنى مالك عن الفُحش والجهل فى الخنيل
 مسفرة : أى مضيئة مشرقة ؛ يقال : أسفر الصبح إذا أضاء ، مستبشرة : أى فرحة بما نالت ، والغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ، ترهقها : أى تغشاها ، والقترة : سواد كاللدخان ، والفجرة : واحد من فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرمانه .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه آلاءه على عباده ، وذكرهم بإحسانه إليهم فى هذه الحياة ، وبين أنه لا ينبغي للعاقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسام - أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها التى توجب الفرع والخوف منه ، ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضى من الدلائل التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة التى جاءت على أسنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم .

وذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق ضاحك مستبشر ، فرِح فرِح المحب يلقى حبيبه ، وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق ، وفريق تعلق وجهه الغبرة ، وترهقه القترة ، وهو الذى تمرد على الله ورسوله ، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحق ، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال .

الإيضاح

(فإذا جاءت الصاخة) أى فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذى يصيح الأسماع ويصكها بشدته - فما أعظم أسف الكافرين ، وما أشد ندمهم .

ثم فصل بعض أهوال هذا اليوم فقال :

(يوم يفتر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى يوم يشغل كل امرئ ما يصيبه من الأهوال ، فيفر من يتوهم أنه يتعلق به ، ويطلب معونته ، على ما هو فيه ، فيتوارى من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من زوجه التي هي ألصق الناس به ، وقد كان في الدنيا يبذل النفس والنفيس في الدفاع عنها ، بل من بنيه وهم فلذات كبد ، وقد كان في الحياة الأولى يفتديهم بماله وروحه ، وهم ریحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينه .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأن لكل امرئ منهم من الرهب ، وما يُرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب — شأننا يغنيه ، ويصدّه عن ذوى قرابته ، فليس لديه فضل ففكر ولا قوة يُمدّ بها غيره .

وقد يكون المعنى — يغنيه ذلك الهم الذي ركب به بسبب نفسه ، وشغله حتى ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر .

وبعد أن ذكر الأهوال التي تعرض للناس في ذلك اليوم ، وأنها لاتسعف أحدا بمواساة أحد ولا الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به — أردفه بيان أن الناس في ذلك اليوم سعداء وأشقياء ، وأشار إلى الأولين بقوله :

(وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة) أى وجوه يومئذ متهللة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها ستوفى ما وعدت به جزاء إيمانها وما قدمت من عمل صالح ، وبشكرها لنعم ربها وآلائه ، وإيثارها ما أمرها به على ما تهواه .

وأشار إلى الآخرين بقوله :

(ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة . أولئك هم الكفرة الفجرة) أى ووجوه يعلوها غبار الذل وسواد القم والحزن ، وهى وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا

بالله ، وبما جاء به أنبيأؤه ، وخرجوا عن حدود شرائعه ، واجتروا السيئات ، واقتروا المعاصى .

وقصارى ما سلف — إن الناس إذ ذاك فريقان :

(١) فريق كان فى دنياه يطلب الحق وينظر فى الحجة ، ويعمل ما استقام عليه الدليل ، لا يثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين ، ولا قوة المعاندين ، وهؤلاء سيطمئون إلى ما أدركوا ، ويفرحون بما نالوا ، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور .

(٢) فريق احتقر عقله ، وأهل النظر فى نعم الله عليه ، وارتضى الجهل ، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، وظل يحب ويضع فى أهوائه الباطلة ، وعقائده الزائفة — وهؤلاء سيجدون كل شىء على غير ما كانوا يعرفون ، فتظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ، وتملأ وجوههم القبرة ، وترهقها القفرة ، لأنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كفرة فجرة .

اللهم احشرننا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وصل ربنا على نبيك وآله وصحبه .

ما جاء فى هذه السورة الكريمة من مقاصد

(١) عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .

(٢) أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر .

(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرابه .

(٤) أهوال يوم القيامة .

(٥) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء ، وذكر حال كل منهما حينئذ .

سورة التكوير

هي مكية ، وآياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة المسد .

ومناسبتها لما قبلها — أن كليهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها . أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَ- إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَ- إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا
الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨)
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ
كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣)
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ (١٤) .

شرح المفردات

تكوير الشمس : لغها كتكوير العمامة ؛ والمراد منه اختفاؤها عن الأعين
وذهاب ضوءها ، وانكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى
ضوؤها ، وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التي تزلزل الأرض ، فتقطع أوصالها ،
وتفصل منها أجزالها ، وتقذفها في الفضاء ، والعشار : واحدها عشراء (بضم العين

وفتح الشين) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر، وهى أكرم مال لدى الخاطبين وقت التنزيل، قال الأعشى فى المدح:

هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضا وإما عشارا

وتعطيلها: إهملها وذهابها حيث تشاء، لعظم المول وشدة الكرب، حشرت: أى ماتت وهلكت، وتسجير البحار: تفجير الزلازل ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا واحدا، زُوِّجت: أى قرنت الأرواح بأجسادها، الموهودة: هى التى دفنت وهى صغيرة، وقد كان ذلك عادة فاشية فيهم فى الجاهلية، وكان ذوو الشرف منهم ينعون من هذا حتى افتخر بذلك الفرزدق فقال:

ومنا الذى منع الوائدات وأخيا الوئيد فلم توءد

يريد جدّه صَمْعَمَة، وكان يشترين من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موهودة، والمراد بالصحف صحف الأعمال التى تنشر على العباد حين يقفون للحساب، كشطت: أى كشفت وأزيلت عما فوقها كما يكشط جلد الذبيحة عنها، سعرت: أى أوقدت إيقادا شديدا، أزلفت: أى أدنيت من أهلها وقربت منهم، ما أحضرت: أى ما أعدت لها من خير أو شر.

المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة، وما يكون فيه من حوادث عظام، ليفخّم شأنه، وبين أنه حين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خير أو شر، ووجدت ذلك أمامها ماثلا، ورأت ما أعدت لها من جزاء وتمنت إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم تكن فعلته، واستبان لها أن الوعيد الذى جاء على السنة الرسل كان وعيدا صادقا، لا تهويل فيه ولا تضليل.

الإيضاح

(إذا الشمس كورت) أى إذا كورت الشمس واحمى ضوءها وسقطت حين خراب العالم الذى يعيش فيه الحى فى حياته الدنيا ، ولا يبقى فى عالمه الآخر الذى ينقلب إليه شىء من هذه الأجرام .

(وإذا النجوم انكدرت) أى وإذا النجوم تناثرت وذهب لألاؤها كما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَبَثَتْ » .

(وإذا الجبال سيرت) أى وإذا الجبال قلعت عن الأرض وسيرت فى الهواء حين زلزلة الأرض ، فتقطع أوصالها وتقذف فى الفضاء ، وتمر على الزروس مر السحاب ونحو الآية قوله : « وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ كَأَنَّ سَرَابًا » وقوله : « وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالِ تَوَرَّى الْأَرْضَ لَازِرَةً » .

(وإذا المشار عطلت) أى وإذا النوق العشار وهى أكرم الأموال لديهم ، وأعرضا عندهم — أهملت ولم يعن بشأنها لاشتداد الخطب ، وفداحة الهول .

وهذا على وجه المثل ، لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، ولكن مثل هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشْرَاءَ لمعطلها واشتغل بنفسه قاله القرطبي .

(وإذا الوحوش حشرت) أى ماتت وهلكت ، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجذب ، حشرتهم السنة : أى أهلكتهم ، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم .

(وإذا البحار سجرت) أى تنجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » .

وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارا ، فإن ما فى باطن الأرض من النار يظهر بتشققتها وتمزق طبقاتها العليا ، وحينئذ يصير الماء بخارا ، ولا يبقى إلا النار .

وقد أثبت البحث العلمي غليان البراكين ، وهي جبال النار التي في باطن الأرض ، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف كما حدث في مستينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩م ، وحدث في اليابان بعد ذلك .

وجاء في بعض الأخبار « إن البحر غطاء جهنم » .

وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء وبطلان الحياة في الأرض وامتناع المميشة فيها - أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور فقال :
(وإذا النفوس زوجت) أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة ، قاله عكرمة والضحاك والشعبي .

وفي هذا إيماء إلى أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد ، فبعد أن كانت متفردة عن البدن تعود إليه .

(وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت ؟) أى وإذا سئلت الموءودة بين يدي وائدها عن السبب الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد وقعا على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته .

وقد افتن العرب في الواد ، ففهم من كان إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحيها ولا يقتلها ، أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها في البادية ترعى إبله ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحماها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء حتى إذا بلغها قال لها انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تسوى البئر بالأرض ، ومنهم من كان يفعل ما هو أنكى وأقسى من ذلك .

فيا لله ، ما أعظم هذه القسوة بقتل البريئات بغير جرم سوى خوف الفقر أو العار ، وكيف استبدلت الرحمة بالفظاظة ، والرأفة بالغلظة ، بعد أن خالط الإسلام قلوبهم ، ومحا وصمة هذا الخوى عنهم .

(وإذا الصحف نشرت) أى وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين فى موقف الحساب حتى لا يرتابوا فيها ، ولا ينبغي أن تبحث عن تلك الصحف ، لتعلم أهي على مثال الأوراق التى نكتب فيها فى الدنيا ، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرى استعماله فى الكتابة ، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا ، ولم يحن نص قاطع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم يفسر ذلك .

(وإذا السماء كشطت) فلم يبق غطاء ولا سماء ، ولم يوجد ما يطلق عليه اسم الأعلى والأسفل .

(وإذا الحجيم سقرت) أى وإذا جهنم التى يعاقب فيها أهل الكفر والطغيان أوقدت إيقاداً شديداً ، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التى تحدث عن مسّ الذيران للأجسام الحية ، وقد جاء فى سورة البقرة : « وَقَوِّدْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

(وإذا الجنة أزلقت) أى وإذا الجنة أدنيت من أهلها : أى أعدت لنزولهم . ونحو الآية قوله تعالى : « وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

(علمت نفس ما أحضرت) أى إذا حصل كل ماتقدم من الأحداث السالفة ، تعلم كل نفس ما كان من عملها متقبلاً وما كان منه مردوداً عليها ، فكثير من الناس كانوا فى الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين ، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضى عنها ، بل هى مبعدة من الله مستحقة لغضبه ؛ فالذين يعملون أعمالهم رياء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة ، ولا تكون متقبلة عند ربهم ، فعليتنا أن ننظر إلى الأعمال بمنظار الشرع ، ونزنها بميزانه الصحيح .

والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما صدر عن قلب ملىء بالإيمان ، عامر بحبه والرغبة فى رضاه ، والحرص على أداء واجباته التى فرضها عليه .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

شرح المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخفي ؛ يقال خنس فلان بين القوم
إذا انقبض واختفى ، والكنس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظبي
إذا دخل كناسه وهو بيته الذى يتخذه من أغصان الشجر ؛ والمراد بالخنس
الجوار الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها : غيبوبتها عن البصر نهاراً ،
وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهى تظهر فى أفلاكها ، كما تظهر الطباء فى كنسها ،
وعسس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر نوره ، قال علقمة بن قُرط :
حتى إذا الصبح لها تنفّسا وانجاب عنها لياها وعسسا

والرسول : هو جبريل عليه السلام ، وكريم : أى عزيز على الله ، ذى قوة :
أى فى حفظه ، مكين : أى ذى مكانة وجاء عند ربه يعطيه مأسأله ؛ يقال مكّن فلان
لدى فلان إذا كانت له عنده حظوة ومنزلة ، ثمّ (بفتح التاء) أى هناك ، أمين :
أى على وحيه ورسالاته ، صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بالأفق المبين :

أى بالألق الواضح ، وضنين : أى بخيل ، وجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله ،
فأين تذهبون : أى أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحججة ، أن يستقيم :
أى على الطريق الواضح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ
يقفون على حقائق أعمالهم فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو
مردود عليهم — أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو
القرآن الذى أنزل عليه وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما يمتصونه به من المعايير
كقولكم : إنه ساحر أو مجنون ، أو كذاب ، أو شاعر ما هو إلا محض افتراء ، وأن
لجأكم فى عداوته وتآلبكم عليه ما هو إلا عناد واستكبار ، وأنكم فى قرارة نفوسكم
علمون حقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا إن هذه عبارة للعرب فى القسم تريد بها تأكيد الخبر
كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم ، وكأنه يقول : أنا لا أقسم بكذا وكذا
على إثبات ما أذكره ، ولا على وجوده فهو واضح جلى ليس فى حاجة إلى الحلف ؛
والمراد به القسم المؤكد .

(بالخنس . الجوار الكنس) أى بالكواكب جميعها ، وهى تخرس بالنهار
فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل : أى تطلع فى أما كنها كالوحش فى كنفها ؛
وقد أقسم بها سبحانه ، لما فى حركاتها وظهورها طوراً واختفائها طوراً آخر من
الدلائل على قدرة مصرفها ، وبديع صنعه ، وإحكام نظامه .

ويرى بعض العلماء أن المراد بها الدرارى الخمسة وهى : عطارد ، والزهرة ،
والمرىخ ، والمشتري ، وزحل ، لأنها تجرى مع الشمس ، ثم ترى راجمة حتى تختفى
فى ضوءها ؛ فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كئوسها .

(والليل إذا عسعس) أى والليل إذا أدبرولى ، وفى إداره زوال النعمة التى
تعمر الأحياء ، بانسدال الظلمة والخسارها .

(والصبح إذا تنفس) أى والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بشرى
للأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، إذ تنطلق الإيرادات ، لتحصيل الرغبات ،
وسدّ الحاجات ، واستدراك ما فات ، والاستعداد لما هو آت .

ثم ذكر الخلوف عليه فقال :

(إنه لقول رسول) أى إن ما أخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم من أسر
الساعة ليس بكهانة ولا اختلاق ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه ، وإنما
كان قوله لأنه هو الذى حمله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد وصف هذا الرسول
بخمسة أوصاف :

(١) (كريم) أى عزيز على ربه ، إذ أعطاه أفضل المطايا ، وهى الهداية
والإرشاد ، وأمره أن يوصلها إلى أنبيائه ليبلغوها لعباده .

(٢) (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ ، وقد جاء فى آية أخرى :
«عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» .

(٣) (عند ذى العرش مكين) أى ذى جاهٍ ومنزلة عند ربه يعطيه ما سأل .

(٤) (مطاع ثم) أى هو مطاع عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون
عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه .

(٥) (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به ،
وجنبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه فقال :

(وما صاحبكم بمجنون) أى وايس محمد صلى الله عليه وسلم بالمجنون كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر مما لم يكن معروفا لهم كما حكى عنهم فى قوله : « أُنَى لَهُمُ الذُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ » وقوله : « أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْفَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

وفى التعبير (بصاحبكم) استدلال عليهم ، وإقامة للحجة على كذبهم فى دعواهم ، فإنه إذا كان صاحبهم ، وكانوا قد خالطوه وعاشروه ، وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة ، وصدق لهجة ، وكمال عقل ، ووفور حلم ، وتفوق على جميع الأنداد والأتراب فى صفات الخير — لم يكن ادعائهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلا من القول وزورا .

(ولقد رآه بالأفق المبين) أى وإن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، وقد تمثل له جبريل فى مثال يظهر ويُبصر ، فتجلى لعينه ، وأعلم أنه جبريل فعرفه .

وقد ذكرت هذه الرؤية فى سورة النجم فى قوله : « مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَحْسَبُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ » . (وما هو على الغيب بضين) أى وايس محمد بانتمهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لا يأتى به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذ لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

ثم نفى عنه فرية أخرى كانوا يتتولونها عليه فقال :

(وما هو بقول شيطان رجيم) أى وما هذا الذى يتكلم به محمد بقول ألقاه

الشیطان على لسانه حين خالط عقله كما تزعمون ، فإنه قد عرف بصحة العقل ، وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدث به من خير الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين .

وقد حكى الله سبحانه عن الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون فقال :
 (كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ .
 ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر ، وجهلوا سبيل الحكمة فقال :
 (فأين تذهبون) أى فأى سبيل تسلكونها وقد سددت عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، وبطلت مفترياتكم ، فلم يبق لكم سبيل تستطيعون الحرب منها .

ثم بين حقيقة القرآن فقال :

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى وما هذا القرآن إلا عظة للخلق كافة يتذكرون بها ما غرروا في طباعهم من حب الخير ، وإنما أنساهم ذكره مطراً عليهم بمقتضى الإلف والعادة من ملكات السوء التى تحدثها أمراض البيئة والمجتمع ، والقذوة السيئة .
 ثم بين أنه لا ينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال :
 (لمن شاء منكم أن يستقيم) أى إنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته ، للاستقامة على جادة الحق والصواب ؛ أما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذكر ولا يخرج من غفلته .

والخلاصة — إن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويجتهد فى كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .
 ثم دفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة فى فعل ما يريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل ، وهو منقطع العلاقة فى إرادته من سلطان ربه فقال :

(وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) أى إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإرادته ، فهو الذى يودع فيكم

إرادة فعل الخير فتصرف هممكم إليه ، ولو شاء أسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحیوانات لا إرادة لها .

وقى قوله : « رب العالمين » بيان لعلة هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهو الذى منحكم كل ما تتمون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم — كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت ، ولو شاء أن يحورها بحيث ، فله الأمر وله الحكم وهو على كل شىء قدير .

موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) أهوال يوم القيامة .
- (٢) الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح إن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته .
- (٣) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٤) بيان أن القرآن عظة وذكرى لمن أراد الهداية ، وتوجهت نفسه إلى فعل الخير .
- (٥) مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب سبحانه ، وليس لها استقلال بالعمل .

سورة الانفطار

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة النازعات .
وهي كسابقتها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ (٥) .

شرح المفردات

انفطرت : أى انشقت ، انتثرت : أى تساقطت متفرقة ، فُجِّرَتْ : أى فتحت
وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختلط عذيبها بلحمها ، بُعْثِرَتْ : أى قلب
ترايبها الذى حشى على موتاها ، وأزِيل وأُخْرِج من دفن فيها ، ما قَدَّمَتْ : أى من
أعمال الخير ، وما أَخَّرَتْ : أى منها بالكسل والتسوية .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين
خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ،
منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير
البحار وبعثرة القبور ، ثم أبان أنه فى ذلك اليوم تتجلى للنفس أعمالها على حقيقتها ،
فلا ترى خيرا فى صورة شر ، ولا تنخيل شرا فى مثال خير ، كما يقع فى الدنيا لأغلب

النفوس ، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرون ، فيأسفون على ما تركوا ، ويستبشرون بما عملوا ، ويمض أهل سوء بنان الندم ، ويوقنون بسوء المنقلب ، ويتمنون أن لو كانوا ترابا .

الإيضاح

(إذا السماء انفطرت) أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره .

وجاء نحو الآية قوله : « وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » وقوله : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » وقوله : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » .

(وإذا الكواكب انتثرت) أى سقطت وتفرقت ، وهذا يحىء تاليا لما قبله ، إذ متى انشقت السماء وانتفض تركيبها ، واختل نظامها - انتثرت كواكبها .

(وإذا البحار فجرت) أى أزيل ما بينها من حواجز ، فاختلط عذبها بملحها ، وفاضت على سطح الأرض حينئذ من الدهر كما قال : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى ملئت وفاض ماؤها ، لاضطراب الأرض وزلازلها الشديد ، ووقوع الخلل فى جميع أجزائها .

والخلاصة - إن هذا العالم تزول صفاته ، وتبديل أحواله ، فتكون الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء كما قال : « يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ بِغَيْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ » .

(وإذا القبور بعثرت) أى أثيرت وقلب أسفلها أعلاها ، وباطنها ظاهرها ، ليخرج من فيها من الولى أحياء .

قوساً رأخرت
 (علمت نفس ما أخصرت) أى علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل ولم يقصر فيه ، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه .
 وفي هذا ترغيب في الطاعة ، وزجر عن المعصية .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
 فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

شرح المفردات

ما غرك : أى أى شئ خدعك وجرّك على العصيان ؟ الكريم : أى العلي العظيم ، فسواك : أى جعل أعضائك سوياً سليمة معدة لموافقها ، فعذلك : أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق ، فى أى صورة ما شاء ركبك : أى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأحكمها ، وكلمة (ما) جاءت زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، وهى طريقة متبعة فى كلامهم عند إرادة التهويل ، وسلوك سبيل التعظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى صدر السورة أنه فى يوم القيامة يبدل نظام هذا العالم ، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من آثام ، ويقرّعهم على تكاسلهم فى أداء ما أمروا به ، ويجزئهم أحسن الجزاء على ما قدموا من عمل صالح . أردف هذا بخطاب الإنسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه، وتعاديه فى فجره وطغيانه ، واسترساله مع دواعى النفس الأمارة بالسوء ، مع أنه لو تدبر فى نفسه وفى خلقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه ، ومداومته على

طاعته ، وهو الذى خلقه فسواه وجعله على أحسن صورة ، وكمله بالعقل والفهم والتدبر فى عواقب الأمور ومصايرها .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الذى خلقك فسواك فعدلك) أى أيها الإنسان العاقل الذى أوتى من قوة الفكر ، وبسطة القدرة ما أوتى ، حتى صار بذلك أفضل الخلوقات - أى شئ خدعك وجراك على عصيان ربك الكريم الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، ولا تزال أيديه تتوالى عليك ، ونعمه تترى لديك ؟ ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك ، وجعلك معتدل القامة ، تام الخلق ؟

ووصف نفسه بالكريم دون القهار ، إيذاناً بأن ذلك مما لا يصلح أن يكون مداراً لاغتراره ، وإغواء الشيطان له بنحو قوله : افعل ماشئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثل ذلك فى الآخرة ، بل هذا يصلح للمبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة .

والخلاصة — كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الذى من صفاته الكرم ، الزاجر لك عن عصيانه ومخالفة أمره ؟

قال عمر بن الخطاب وقد تلا الآية: غرّه جهله وقرأ: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» وقال قتادة: غرّه عدوه المسلط عليه . ثم أجمل ما فصله أولاً بقوله :

(فى أى صورة ما شاء ربك) أى زكيت فى صورة هى من أبهى الصور وأجلها ، وأدلها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة ، فإن الكريم يوفى كل مرتبة من الوجود حقها ، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش

كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر ، وإنما الذى يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ، ولا فناء بعدها ، يوقى فيها كل ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله .

كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ؟ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

شرح المفردات

كلا : كلمة تفيد نفي شيء قد تقدم وتحقيق غيره ، والدين : الجزاء ، حافظين أى يحصون أعمالكم خيرا كانت أو شرا ، والأبرار : واحدهم برّ؛ وهو من يفعل البر (بكسر الباء) ويتقى الله فى كل أفعاله ، والفجار : واحدهم فاجر؛ وهو التارك لما شرعه الله وحدّه لعباده ، يصلونها : أى يقاسون حرها ، يوم الدين : أى يوم الجزاء ، ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة ، وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شيء يحميه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد

والتكذيب ؛ فالشعور النفسى يوحى به ، والدليل الثقل الذى أتى به الرسول يصدقه ،
والله لم يترك عملا لعباده إلا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل أجره ؛ فقد وكل
الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .
ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان ، بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه
نهى ، وهؤلاء يتقلبون فى النعيم ، وفجرة يتركون أوامر الدين ، وأولئك يكونون
فى دار العذاب والهوان يقاسون حر النار ، وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول
عليه سوى ما قدمت يدها ، فيجفوه الأولياء ، ويخذه الشفعاء ، ويتبرأ منه الأقرباء ،
فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ، وهو المهيم على عباده ،
وييده تصريف أمورهم ، وهو الصادق فى وعده ، العدل الحكيم فى وعيده ؛ فلا هرب
لعامل مما أعد له من الجزاء على عمله .

الإيضاح

(كلاب تكذبون بالدين) أى ارتدعوا عن الاغترار بكرمى لكم ، فإنكم
لا تستقيمون على ما توجبه نعمى عليكم ، ويدعوه إرشادى لكم ، بل تجترئون على ما هو
أعظم منه ، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب على التقليل والكثير ، يوم تبعثون للفصل
بينكم ، فتجازى كل نفس بما عملت ، وما قدمت وأخرت .

ثم حذرهم من تماديهم فى غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم فقال :
(وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تعملون) أى إن أعمالكم
محصاة عليكم ، فقد وكل بكم ملائكة حفظة ، كرام كاتبون ، يحصون كل ما تعملون
من خير وشر .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من الكتاب الكريم كقوله : « عَنِ الْيَمِينِ
وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وقوله :
« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَرَقَّ عِبَادَهُ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » .

وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة ، ولا أن نعرف من أى شىء خلقوا ، وما عملهم ، وكيف يحفظون الأعمال ، وهل عندهم أوراق وأقلام ، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال ، أو هم أرواح تتجلى فيها تلك الأعمال ، فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس - كل ذلك لم نكتفِ العلم به ، وإنما نكتفِ الإيمان بصدق الخبر ، وتفويض الأمر فى حقيقته إلى الله .

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب ، وبين أن العاملين فى ذلك اليوم فريقان ، وبين مآل كل منهما فقال :

(إن الأبرار لى نعيم . وإن الفجار لى جحيم . يصلونها يوم الدين) أى وإن أهل الثواب وهم الأبرار يكونون فى دار النعيم ، وإن أهل العقاب وهم الفجار يكونون فى دار الجحيم ، دار العذاب الأليم يقاسون أهوالها .

ثم بين أن هذا العذاب حتم لا منجاة لهم منه ولا مهرب فقال :

(وما هم عنها بغائبين) أى إنهم لا يغيبون عن الجحيم ، ولا ينفكون عن عذابها ، بل هم ملازمون لها .

ثم عاد إلى تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره فقال :

(وما أدراك ما يوم الدين) أى إن أمرك أيها الإنسان لعجيب ، فأنت لاه عن هذا اليوم غير مبال به ، وقد كنت خليقا أن تتعرف حقيقة حاله ، لتأخذ لنفسك الحظية ، وتندبر أمرك ، ولا تركزنى إلى عفوربك وكرمه وصفحته ، فإنك لا تدري ما قدر لك .

ثم زاده توكيدا وتعظيما فقال :

(ثم ما أدراك ما يوم الدين؟) أى ثم عجيب منك أن تتهاون بنبا هذا اليوم ، كأنك قد أدركت كنهه ، وعرفت وجه الخلاص مما يلبئك فيه من الأهوال ، ولوعرفته حق معرفته للآنت قناتك ، ورجعت إلى ربك تائباً ، وعدت إليه مستغفراً ، طالبا الصفح عما قدمت يداك .

ثم بين حقيقة أمره فقال :

(يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) أى يوم لا تستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه
ولا أمر إلا الله وحده ، فكل امرئ مشغول بما هو فيه ، كما قال : « وَأَتَّوُوا يَوْمًا
لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » وقال : « يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُ مِنْ أُخِيهِ . وَأُمَّهُ
وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(والأمر يومئذ لله) وحده ، فلا أحد يحصى أحدا ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئا .
وقد استأنر الله بالأمر كله ، فبيده تصرفه ، وإليه المرجع والمآب ..
ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ، ولا نخزننا يوم القيامة ، إك لا تخلف الميعاد .

ما فى هذه السورة من مقاصد

- (١) وصف بعض أهوال يوم القيامة .
- (٢) تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران .
- (٣) بيان أن أعمال الإنسان موكل بها كرام كاتبون .
- (٤) بيان أن الناس فى هذا اليوم : إما بررة . نعمون ، وإما فجرة معذبون .

سورة المطففين

آياتها ست وثلاثون ، نزلت بعد سورة العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت بمكة .

ومناسبتها لما قبلها . أنه قال هناك : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » يجعل في عليين أو في سبعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

شرح المفردات

ويل : أى هلاك عظيم ، والتطفيف : البيضس فى الكيل والوزن ؛ وسمى بذلك لأن ما يبيضس شىء حقير طفيف ، اکتالوا على الناس : أى اکتالوا من الناس حقوقهم ، يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة ، كالوم : أى كالوا لهم ، يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان ، يقوم الناس لرب العالمين : أى يقف الناس للعرض على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالاً لمظمة ربهم .

المعنى الجملى

فصل سبحانه فى هذه السورة ما أجمله فى سابقها ، فذكر فيها نوعان من أنواع الفجور وهو التطفيف فى المكيال والميزان ، ثم نوعاً آخر وهو التكذيب بيوم الدين ثم أعقبه بذكر جزأهم على هذا التكذيب وتوبيخهم عليه .

الإيضاح

(ويبل للمطففين) أى عذاب وخزى شديد يوم القيامة لمن يطفف في المكيال والميزان .

وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد ، من قبل أنه كان فاشيا منشرا بمكة والمدينة ، فكأوا يطففون المكيال ويبخسونه ولا يوفون حق المشتري .

روى أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له كيلان أحدهما كبير والثاني صغير ، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار اشتري بالكيل الكبير ، وإذا باع للناس كال المشتري بالكيل الصغير .

هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع ، واستولى على نفوسهم الجشع - هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعدهم النبي صلى الله عليه وسلم وتهتددهم بقوله : « خمس بخمس : ما نقض قوم الهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات ، ولا منعوا الزكاة إلا خيس عنهم المطر » .

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذى استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله :

(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون : وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى إذا كان لهم عند الناس حق فى شيء من المكيالات لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وأقيا كاملا ، وإذا كان لأحد عندهم شيء وأرادوا أن يؤدوه له أعطوه ناقصا غير واف .

واقصر النظم على الاكتيال حين الاستيفاء ، وذكر الكيل والميزان فيه حين الإخصار ، لأن التطفيف فى الكيل يكون بشيء قليل لا يعبأ به فى الأغلب ، دون التطفيف فى الوزن ، فإن أدنى حيلة فيه يفضى إلى شيء كثير ، ولأن ما يوزن أكثر

قيمة في كثير من الأحوال مما يكال ، فإذا أخبرت الآية بأنهم لا ييقنون على الناس ما هو قليل مهين من حقوقهم ، علم أنهم لا ييقنون عليهم والكثير الذي لا يتسامح فيه إلا نادرا بالطريق الأولى .

وكما يكون التطفيف في الكيل والميزان يكون في أشياء أخرى ، فمن استأجر عاملا ووقف أمامه يراقبه ويطلبه بتجويد عمله ، ثم إذا كان هو عاملا أجيرا لم يراقب ربه في العمل ولم يقم به على الوجه الذي ينبغي أن يقوم به - يكون واقعا تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجبا لأليم العذاب ، مهما يكن عمله ، جل أو حقرا ؛ وإذا كان هذا الإنذار للمطففين الراضين بالقليل من السحت ؛ فما ظنك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويغلبونهم على ثمار أعمالهم ، فيحرمونهم التمتع بها ، اعتمادا على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال الحيل المختلفة .

لا جرم أن هؤلاء لا يحسبون إلا في عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين ، وإن زعموا بألسنتهم أنهم من المؤمنين المحبتين .

ثم هوّل في شأن هذا العمل فقال :

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم) أى إن تطفيف الكيل والميزان واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة - لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ، إذ لو ظن ذلك لما طفف الكيل ولا بخس الميزان .

والخلاصة - إنه لا يجسر على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده على أعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

ثم وصف هذا اليوم فقال :

(يوم يقوم الناس لرب العالمين) أى هذا اليوم هو اليوم الذى يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاما لجلاله تعالى .

ولا يخفى ما في الوصف برب العالمين من الدلالة على عظم الذنب وتقادم الإثم في التطفيف ، إذ أن الميزان هو قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض .
وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول : اتق الله تعال وأوف السكيل ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن ، حتى إن العرق ليلجمهم .
وعن عكرمة أنه قال : أشهد أن كل كيال ووزان في النار ، فقيل له : إن ابنك كيال ، فقال : أشهد إنه في النار ، وكأنه أراد المبالغة وبيان أن الغالب فيهم التطفيف .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ؟ (٨)
كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكْذِبُونَ
بِیَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) .

شرح المفردات

سجين : اسم للكتاب الذي دوت فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقما ، معتد : أى متجاوز منهج الحق ، أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام : وهى المعاصى ، أساطير الأولين : أى أخبار الأولين أخذها محمد عن بعض السابقين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا يقيم على التطفيف إلا من يفكر ما أوعده الله به من العرض والحساب وعذاب الكفار والمعصاة - أمرهم بالكف عما هم فيه ، وذكر أن الفجار

قد أعد لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها ، فويل للكاذبين بيوم
الجزاء ، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين واتهمك حرمانه ، وإذا تليت
عليهم آيات القرآن قالوا ما هي إلا أقاصيص الأولين نقلها محمد عن السابقين ، وليست
وحيا يوحى كما يدعى .

الإيضاح

(كلا) أى ازدجروا عما أتم عليه من النظيف والغفلة عن الحساب .
ثم عاّل هذا بقوله :

(إن كتاب النجار لنى سجين) أى كفروا عما أتم عليه ، فإن النجار
سيحاسبون على أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم يسمى (سجينا) .
(وما أدراك ما سجين ؟) أى ليس ذلك مما تعلمه أنت ولا قومك .
ثم فسره له فقال :

(كتاب مرقوم) أى كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه
لاخير فيه .

وقصارى ما سأل — إن للشر سجلا دونت فيه أعمال النجار وهو كتاب
مسطور بين الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ،
كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها
وحساب غيرها من القرى .

فلكل فاجر من النجار صحيفة ، وهذه الصحف فى السجل العظيم
المسمى بسجين .

(ويل يومئذ للكاذبين . الذين يكذبون بيوم الدين) أى شدة وعذاب لمن
يكذب بيوم الجزاء ، سواء كان يحدد أخباره أو بعدم المبالاة بما يكون فيه من
عقاب وعذاب .

وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الإصرار على الجرائم ، والمداومة على
اقتراح السيئات .

ثم بين أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال :

(وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أى وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى
على الحق ، وعصى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الجرائم ، إذ يصعب عليه الإذعان
بأخبار الآخرة ، لأنه يأبى النظر في أدلتها ، وتدبر البيئات المرشدة إلى صدقها ، إلى
أنه يملل نفسه بالإنكار ، ويهون عليها الأمر بالتعافل ، أو التعلق بالأمانى من نصرة
الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

أما من كان ميالاً إلى العدل ، واقفاً عند ما حدى الله لعباده في شرائعه وسننه
في نظام الكون ، فأيسر شيء عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو أعون له على
ماتميل إليه نفسه .

(إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى وإذا قرئ عليه القرآن أنكر
كونه منزلاً من عند الله ، وزعم أنه أخبار الأولين ، أخذها محمد من غيره
من السابقين .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْتِرَاءُ وَأَعَانَهُ
عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأُولِينَ اكَتْتَبَهَا فَهِيَ
تُمْتَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .
إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وقد يكون المعنى — إنها أباطيل ألقيت على آباءهم الأولين فكذبوها ولم تجز
عليهم ، فلسنا أول من يكذب بها حتى تزعمون أن تكذبتنا بها يعتبر عجلة منا ،
فإنا إنما تأسبنا في تكذبتنا بها بآبائنا الأولين الذين سبقونا .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) .

شرح المفردات

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدا يفشى الذاب كالغيم الرقيق . وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، قال الفراء : كثرت منهم المعاصى والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها ، لمحجوبون : أى مطرودون عن أبواب الكرامة ، لصالوا الجحيم : أى لداخلوا النار وملازموها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم قالوا : إن القرآن أساطير الأولين وليس وحيا من عند الله - أردف ذلك بيان أن الذى جرأهم على ذلك هى أفعالهم القبيحة التى صرنا عليها ، فعميت عليهم وجوه الآراء حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة .

ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها ، ويكثرون من ترددها - وهى ، إن كان ما يحدث به محمد صحيحا فنحن سنكون فى منزلة الكرامة عند ربنا ، فأبان لهم أنهم كاذبون ، فإنهم سيطرودون من رحمته ولا يفتنون رضاه ، ثم يؤمرهم إلى النار فيدخلونها ويصلون سعيها ، ويقال لهم هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول .

الإيضاح

(كلا) زجر لكل معتد أنهم يقول الزور ويزعم أن القرآن أساطير الأولين .

ثم بين السبب الذي حملهم على ذلك فقال :

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين ، بل الذى جرأهم على ذلك هو أفعالهم التى دربوا عليها واعتادوها فصارت سببا لحصول الرين على قلوبهم ، فالتبست عليهم الأمور ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح ، والصدق الواضح ، والدليل الأماح .

وبعد أن بين منزلة العجار والمكذبين بيوم الدين - دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة يوم القيامة فقال :

(كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أى ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقربين إلى الله ، فإنكم ستطردون من رحمته ولا تنالون رضاه ، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزاني عنده كما قال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ » .

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال :

(ثم إنهم لصالو الجحيم) أى وبعد أن يجحبوا فى عَرَصات القيامة عن الدنو من ربهم ، وإدراك أمانهم التى كانوا يطمنونها - يقذف بهم فى النار ويصلون سعيها ويقاسون حرها .

ثم أرشد إلى أنهم حينئذ يبكتون ويوبخون فوق ما بهم من الآلام فقال :

(ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) أى هذا الذى عوقبتم به - هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق ، كزعمكم أنكم لن تبعثوا ، وأن القرآن أساطير الأولين ، وأن محمدا ساحر أو كذاب ، إلى نحو ذلك من مقالاتكم ؛ والآن قد تبين لكم حقيقة أمركم ، وعاييتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم هو الحق الذى لا شك فيه .

وما أشد على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم، بأن وسائل نجاته من مصابه كانت في متناول يديه وقد أهملها وألقى بها وراءه ظهرياً .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩)
 كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢)
 عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)
 يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
 الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَنِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
 الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

شرح المفردات

عليين : أى فى مكان عال وقد تقدم أن سيجينا مكان فى نهاية السفلى ، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين وأعمال الخاسرين ، وليس علينا أن نعرف ما هما ؟ أمن أوراق أو أخشاب أو معادن أخرى ، والأرائك : هى الأسرة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة) وحجلة العروس بيت : أى خيمة تزين بالثياب والأسرة والستور ، ونضرة النعيم : بهجته وروثقه ، ورحيق : أى شراب خالص لا عس فيه ، مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت ، ختامه مسك : أى ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين ، وأصل التنافس : التشاجر على الشئ والتنازع فيه بأن يجب كل واحد أن يفرد به دون صاحبه ، والمراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ، ليلحقوا بالعاملين ، والمزاج والمزج : الشئ الذى يمزج بغيره ، والمزج : خلط أحد الشئيين بالآخر ، والتسليم : عين من ماء تجرى من أعلى

إلى أسفل ، وهو أشرف شراب في الجنة ، ويكون صرفا للمقربين ممزوجا لأصحاب
اليمين وسائر أهل الجنة ، والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكروهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال القجاز وحال المطففين ، وبين منزلتهم عند الله يوم
القيامة - أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا برهيم وصدقوا رسولهم فيما جاء به
عن خالقهم ، وعملوا الخير في الحياة الدنيا ، فذكر أن الله قد أحصى أعمالهم في كتاب
مرقوم اسمه عليهم يشهده المقربون من الملائكة .

وبعد ذلك عدد ما يبالغون من الجزاء على البر والإحسان .
وفي ذلك ترغيب في الطاعة ، وحفز لعزائم المحسنين ، ليزدادوا إحسانا ،
ويدعوا الطرق المشبهة الملتبسة وقيموا على الطريق المستقيم .

الإيضاح

(كلا) أى ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ، ومن أن
كتاب الله أساطير الأولين .

(إن كتاب الأبرار لفي عليين) أى إن كتاب أعمال الأبرار مودع في أعلى
الأمكنة ، بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، تشریفاهم وتعظيمًا لشأنهم .

كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار في أسفل سافلين - إذلالهم وتحقير
شأنهم ، وبيان أنه لا يؤبه بهم ولا يعنى بأمرهم .

ثم عظم شأن عليين وفخم أمره فقال :

(وما أدراك ما عليون) أى وما أعلمك أى شئ هو ؟

ثم فسره وبين المراد منه فقال :

(كتاب مرقوم . يشهده المقربون) أى إن كتابهم فى هذا السجل الكبير الذى يشهده المقربون من الملائكة ، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم ، وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار .

وقد يكون المراد — إنهم ينقلون ما فى تلك الصحف إلى ذلك الكتاب الذى وكلوا بحفظه ، ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار .
وبعد أن بين منزلة كتاب الأبرار — أخذ يفصل حال الأبرار فقال :

(إن الأبرار فى نعيم) أى إن البررة المطيعين لربهم ، الذين يؤمنون بالبعث والحساب ، ويصدقون بما جاء على لسان رسوله — لى لذة ، وخفض عيش ، وراحة بال ، واطمئنان نفس .

ثم ذكر أوصاف هذا النعيم ونغم شأنه فقال :

(على الأرائك ينظرون) أى على الأسرة فى حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم فى الجنة من الحور العين والولدان وأنواع الأطعمة والأشربة والمراكب الفارحة إلى نحو ذلك .

ثم بين أثر هذا النعيم على أهل الجنة فقال :

(تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أى إنك إذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة ، لما ترى فى وجوههم من الأمارات الدالة على ذلك ؛ فن ضحك ، إلى هدوء بال ، إلى استبشار كما قال : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . »
(يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك) أى يسقون خمر لا عس فيها ، ولا يصيب شاربها خمار ولا يناله منها أذى كما قال تعالى : « لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزفون » .

وقد ختمت أوانبها بختم من مسك بدل الطين ، تكرر ما وصونا لها عن الابتذال على ما جرت به العادة من ختم الإنسان على ما يكرّم ويصان .

وهذا النوع من الخمر غير النوع الآخر الذي يجري في الأنهار الذي أشار إليه سبحانه بقوله : « وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِشَّارِبِينَ » .

ثم رغب في العمل لذلك النعيم فقال :

(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) أى وفي ذلك النعيم فليتنافس المتسابقون ،
وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .

وفي هذا إيحاء إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ،
لا فى النعيم الذى يشوبه السكر وهو سريع الفناء .

(ومزاجه من تسنيم) أى ومزاج هذا الرحيق ينصب عليهم من الأعلى ، وقد
سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ
مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

ثم بين هذا التسنيم فقال :

(عينا يشرب بها المقربون) أى أمدح عينا يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجا
إذا أرادوا ، وقد وصفهم الله بالمقربين تكريما لهم وزيادة فى مدحهم .

وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه ، فبين لهم أنهم
فى الآخرة يشربون رحيقا قد وصف بما يجعل النفوس تشوق إليه ، وأنهم يمزجونه
بماء تبيخهم به العين العالية القدر ، إذا شاءوا أن يمزجوه .

وقصارى ماسلف — أنه سبحانه وصف النعيم الذى أعده للأبرار فى دار كرامته
بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوقها إليه ، ليكون حضا للذين يعملون الصالحات على
الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحشا لهم المقصرين ، واستنهاضا لعزائمهم
أن يحرصوا على التزوّد منه ليكون لهم مثل ما لأولئك .

إلى ما فيه من تخزين العصاة المصرّين على عصيانهم ، وبلوغ الغاية فى إيلاهم ،
فإن العدو يسوءه أن يرى عدوه فى نعمة ، أو يسمع أن النعمة تنتظره .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا
 مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)
 فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَىٰ الْأَرَائِكِ
 يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

شرح المفردات

الغمز : الإشارة بالجنف والحجاب استهزاء وسخرية ، وقد يراد به العيب فيقال
 غمز فلان فلانا إذا عابه وذكره بسوء ، ويقال فلان لامغمز فيه : أى ليس فيه ما يعاب
 به ، فكهين : أى معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان ، حافظين :
 أى رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم ، والشويب والإثابة : المجازاة ؛ يقال
 توبه وأثابه إذا جازاه كما قال :

سأجزيكِ أو يجزيكِ عني مُؤِثُّبٌ وحسبكِ أن يُثنى عليكِ وتحمدي

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه النعم الذى هياه للذين آمنوا به وبرسوله ، وعملوا بما
 كلفهم به من أعمال البر ، وأرشد إلى ما أعده للفجار جزاء ما اجتروا من السيئات
 - أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما سيقابل به المؤمنون
 الكفار يوم القيامة ، كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى .

روى أن صنديد قریش كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي
 وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميه بن خلف وأضراهم ، كانوا يؤذون رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويستهزئون بهم ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم .
 وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّا كَرِهْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

وروى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين فرآه بعض
 هؤلاء الكفار فسحروا منه ومن معه وضحكوا منهم وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية
 شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

الإيضاح

(إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) أى إن المعتدين الائمة
 الذين ضريت نفوسهم على الشر ، وصممت آذانهم عن سماع دعوة الحق — كانوا
 في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا .

ذاك أنه حين رحم الله العالم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم
 وعرفاؤهم على رأى الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام ، وكانت دعوة الحق خافتة
 لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يلجى دعوته من الضعفاء ،
 فيُسِرُّ بها إلى من يرجو الخير فيه ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه .

ومن شأن القوى المعتز بقوته وكثرة ماله وعزة نفره أن يضحك ممن يخالفه
 في المنزغ ويدعوه إلى غير مايعرف ، كما كان ذلك شأن جماعة من قریش كأبي جهل
 وشيعته ، وأمثالهم كثيرون في كل زمان ومكان ، متى عمت البدع وخفى طريق الحق ،
 وتحكمت الشهوات ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، وإذا
 صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم
 بالداعى إليه .

(وإذا مروا بهم يتغامزون) أى وإذا مر المؤمنون بهم يعيبونهم ويدكرونهم
 بالسوء ، ويشيرون إليهم مستهزئين .

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أى وإذا رجعوا إلى ذرى قرابتهم
 وبني جلدتهم وأشياهم من أهل الشرك والضلالة — رجعوا معجبين بما فعلوا من
 العيب على أهل الإيمان ورميهم بالسُخف وقلة العقل ، ويقولون : عجبا لهم ، إذ يقولون
 لا تدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطاب إلا إليه ، فأين الأولياء والشفعاء ،
 فكم ضررنا وكم نعموا — إلى نحو ذلك مما يتندرون به ويعدونّه فكاهة
 ويتلذذون بحكايته .

(وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أى وإذا رأوا المؤمنين قالوا إن هؤلاء
 ضالون ، إذ نبذوا ما عليه الكفاة ، وذهبوا يعميون العقائد الموروثة والمناسك التي
 نقلها الخلف عن السلف ، كإبراهيم عن كابر ، وجيلا بعد جيل .
 فرد سبحانه على هؤلاء الكفار فقال :

(وما أرسلوا عليهم حافظين) أى إن الله لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين ،
 ولم يؤتمهم سلطة محاسبتهم على أفعالهم ، وتعريف باطلها من صحيحها ، فلا يسواغ لهم
 أن يعييبوا عليهم ما يعقدونه ضلالا بعقولهم الفاسدة ، وإنما كفهم أن ينظروا شئون
 أنفسهم ، فيعدّلوا منها ما أعوج ، فإذا فعلوا ذلك قاموا بما يجب عليهم في هذه الحياة .
 ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة ، تسليّة لهم على ما ينالهم منهم
 من أذى وتقوية لقلوبهم ، وشددا لعزائمهم على التذرع بالصبر فقال :

(فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) أى إنهم في يوم الدين يضحك
 المؤمنون ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسرّ به ، وينكشف لهم ما كانوا
 يرجون من إكرام الله لهم وخذلان أعدائهم ، فضحكوا من أولئك المرورين الجحدة
 الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم .

(على الأرائك ينظرون) إلى ما صنع الله بأعدائهم ، وتكليمه بمن كانوا يفخرون

عليهم ويهزون بهم .

ثم ذكر ما ينظرون إليه ليستيقنوا من حصوله فقال :
 (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) أى إنهم ينظرون ليتحققوا : هل جورى
 الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا .
 وإنما سمى الجزاء على العمل ثوابا ، لأنه يُرجع إلى صاحبه نظير ما عمله من
 خير أو شر .

ولله الحمد على إنعامه ، والشكر على إحسانه وإفضاله .

مقاصد هذه السورة

- (١) وعيد المطففين .
- (٢) بيان أن صفات أعمال الفجار فى أسفل سافلين .
- (٣) الإرشاد إلى أن صفات أعمال الأبرار فى أعلى عليين .
- (٤) وصف نعيم الأبرار فى ما كلفهم ومشاربهم ومساكنهم .
- (٥) استهزاء المجرمين بالمؤمنين فى الدنيا وتعامرهم بهم وحكمهم عليهم بالضلال .
- (٦) تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .
- (٧) نظر المؤمنين إلى المجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعد لهم من النكال .

سورة الانشقاق

هى مكية ، وآياتها خمس وعشرون ، نزلت بعد سورة الانفطار .
ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر
عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ
مَدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُلاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ يَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو
تُجُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ
أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) :

شرح المفردات

انشقت : أى تشققت بالتمام كما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ »

وأذنت لربها : أى استمعت له كما قال :

صُمُّوا إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِشَرِّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

وَحُقَّتْ : أى وحق لها أن تتمثل ذلك أى يجدر بها أن تكون كذلك ،

قال كثير :

فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً وحقت لها العتبي لدينا وقلت
مدت : أى بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صافصفاً لا ترى فيها
عوجاً ولا أمثاً ، وأقت ماقبها : أى ألتقت ماقبها من الموتى والكنوز ، وتخت :
أى خلت مما فيها فلم يبق فيها شيء ، كادح : أى جاهد مجداً . قال شاعرهم :
ومضت بشاشة كلِّ عيشٍ وبقية كدح للحياة وأنصب
فملاقيه : أى فملاق له عقب ذلك ، ينقلب : أى يرجع ، أهله : أى عشيرته
المؤمنين ، وراء ظهره : أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره ، والثبور : الهلاك أى ينادى
ويقول : واثبوراه أقبل فهذا أوانك ، ويصلى : أى يقاسى ، وسعيراً : أى ناراً
مستعرة ، مسروراً : أى فرحاً ، يحور : أى يرجع قال لبيد :
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
والمراد أنه لن يرجع إلى الله ، بلى : أى بلى يحور ويرجع .

المعنى الجملى

بين سبحانه في أوائل هذه السورة أهوال يوم القيامة ، فذكر أنه حين انشقاق
السماء واختلال نظام العالم ، وانبساط الأرض بنسف ماقبها من جبال ، وتخليها
عما في جوفها — يلاق المرء ربه فيوفيه حسابه ، وينقسم الناس حينئذ فرقتين :
(١) فريق الصالحين البررة ، وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً ويرجعون
مسرورين إلى أهلهم .

(٢) فريق الكفرة والعصاة ، وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم ، ثم يصلون
حر النار لأنهم كانوا فرحين بما يمتعون به من اللذات والجري وراء الشهوات ،
إذ كانوا يظنون أن لا يموت ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

الإيضاح

(إذا السماء انشقت) لفساد تركيبها واختلال نظامها ، حينما يريد الله خراب هذا العالم يحدث من الأحداث ، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من كوكب آخر ، فيتجاذبان ويتصادمان ، فيضطرب نظام العالم العلوى بأسره ، ويحدث من ذلك غمام يظهر في مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع .

(وأذنت لربها) أى استمعت وانقادت لتأثير قدرته ، وفعلت فعل الطواغى الذى إذا أمر أنصت وأذعن وامثل ما أمر به ، وفى الحديث : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبى يتفنى بالقرآن » .

(وحقت) أى وحق لها أن تتمثل لأنها مخلوقة من مخلوقاته وهى فى قبضته ، فإن أراد تبديد نظامها فعل ولم يكن لها أن تعصى إرادته .

(وإذا الأرض مدت) أى وإذا اضطربت الأرض ودكت جبالها ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت ما بينها من التماسك ، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن بل تمدد مد الأديم الكماطى كما روى عن ابن عباس (والأديم : الجلد ، والمكاظى : المدبوغ فى عكاظ) والمراد أنه لا انشقاق فيها ولا اعوجاج .

(وألق ما فيها) أى رمت ما فى جوفها من الناس والمعادن ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها .

ونحو هذا قوله : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقوله : « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » وقوله : « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

(وتخلت) أى خلت من جميع ما فى جوفها ، وربما قدفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن سطحها ، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها ، وهى فى ذلك خاضعة لأوامر ربها ، منقادة لمشيئته .

(وأذنت لربها وحقت) أى واستمعت وأطاعت أوامره ، لأنها فى قبضة القدرة الإلهية تصرّفها فى الغناء ، كما صرفتها فى الابتداء .

وجواب إذا الذى صدرت به السورة محذوف لإرادة التهويل على المخاطبين ، فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره -- ترون ما علمتم من خير أوشر ، فأكدحوا لذلك اليوم ، تفوزوا بالنعيم .

وقصارى ذلك -- وصف أحوال العالم يوم القيامة «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» وأنه يكون على غير حاله التى هو عليها فى هذه الحياة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، ويبرز الناس للحساب على ما قدموا فى حياتهم من عمل فيجازيهم على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة السوءى ، وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ونكمل علم حقيقته ، ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقه) أى أيها الإنسان ، إنك عامل فى هذه الحياة ومجدّ فى عملك ، ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك ، وإن كنت لا تشعر بجدك ، أو تشعر به وتلهو عنه ، وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة إلى أجلك ، وهناك لقاء الله ، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويجلوها وجه الحق ، فتعرف من الله ما كانت تنكره ، ويوم البعث يرتفع الاتياب ، ويعرف كل عامل ماجرّ إليه عمله .

والناس حينئذ صنفان :

(١) فأما من أوتى كتابه يمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا) أى فأما من عرض عليه سجل أعماله وتناوله يمينه ، فإنه يحاسب أسيرا الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته ومعاصيه ، ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية .

وقد روى عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« اللهم حاسبنى حسابا يسيرا ، قلت وما الحساب اليسير؟ قال : يُنظر فى كتابه ويتجاوز
عن سيئاته ، فأما من نوقس الحساب فقد هلك » .

ومن حوسب هذا الحساب اليسير رجع إلى أهله المؤمنين مسرورا مبتهجا قائلا :
« هَاؤُمْ أَقْرَءُوا كِتَابِيَّةً » .

(٢) (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيراً)
أى وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجترأ المعاصى ، فيؤتون كتبهم
بشمالهم من وراء ظهورهم ، ومد اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة ، وأظهر
فى الدلالة على الكراهة والنفور أن يستدبره ويعرض عنه . فيكون من وراء ظهره .
وقصارى ماسلف — إن من عرض عليه كتابه وقدم إليه ليأخذه ، فاندفع إليه
بعزيمة صادقة ، لشعوره بأنه مستودع الصالحات ، وسجل البر والكرامات ، فشأنه
كذا وكذا .

ومن قَدَّم إليه كتابه وعرض عليه عمله ، فخرَّيث نفسه وخارت عزيمته ،
فقدَّ إليه يساره أو أعرض عنه فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات ، وسجين
الحجازى فأمره كيت وكيت .

يرشد إلى ذلك ماورد من التفصيل فى سورة الحاقة « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ
بِيمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ أَقْرَءُوا كِتَابِيَّةً . إِنْى ظَنَنْتُ أَنْى مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً . فَهُوَ
فى عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ » ودعوة الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة .

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةً . وَلَمْ أَدْرِ
مَا حِسَابِيَّةً . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أُغْنِي عَنى مَالِيهِ . هَلَاكٌ عَنى سُلْطَانِيَّةً »
ولا شك أن هذا قول المخدول الكاره لما عرض عليه .

والخلاصة — إن إتياء الكتاب باليمين ، أو باليسار أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع على أعماله في ذلك اليوم ؛ فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر ، وتغنى لولم تكشف له ، وتناولها باليسار أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو واثورا ، أى يهلك أقبل فإني لا أريد أن أبقى حيا ، علما منه بأن ذلك داع إلى طول العذاب ، وأنه سيدخل النار ويقاسى سعيرها .

ثم ذكر سبحانه سببين في استحقاقه للعذاب في الآخرة فقال :

(١) (إنه كان في أهله مسرورا) أى لأنه كان في حياته الدنيا فرحا بطرا لا يفكر في أمور الآخرة ، ويقدم على المعاصى ظنا منه أن لذاتها لا توجب الحسرة ، ولا تورث التردى في نار الجحيم ، ومن ثم أبدله الله بهذا النعم الزائل عذابا لا ينقطع ، وآلاما لا تنتقد .

(٢) (إنه ظن أن لن يحور) أى إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ، وأنه لن يبعث انطلق لحسابهم على ما قدموا ، ولو علم أن الله سيدبل سروره هماً ، وفرحه حزناً وغماً — لأفزع عما هو فيه ، ولترك هذا السرور العاجل السريع الفناء ، وطلب من السرور ما يبقى ما بقيت الجنة التى لا يفتى نعيمها ، ولا يزول سرور أهلها .

وفي الآية إيماء إلى أن المسخرين لشهواتهم ، الساعين وراء لذاتهم ليسوا بظانين فضلا عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلى ربهم ليحاسبهم ، بل الراجح عندهم أنهم لا يحاسبون ، وأن الله مخلف وعده ، وهذا هو الذى ينسبهم ذكره عند كل جرم يُجرمونه ، فهم وإن كانوا بزعمون الإيمان بالله ووعده ووعيدته ، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

ثم رد عليه ظنه الخاطى فقال :

(بلى إن ربه كان به بصيرا) أى بلى ليحورن ويرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيرا وعلى الشر شرا ، فإن الذى يخلق الإنسان مستعدا

لما لا يتناهى من السكال، بما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان، بل تقضى حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يثمر فيها أعماله، ويوفى فيها كماله.

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)
 لَتَرَنَّ كَيْبُنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ
 الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

شرح المفردات

الشفق: هو الحجرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد الغروب، وأصله رقة الشيء؛
 يقال ثوب شفق: أى لا يتماسك لرقته، ومنه أشفق عليه: أى رق له قلبه قال:
 تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
 وسق: أى ضم وجمع؛ يقال وسقه فانسق واستوسق: أى جمعه فاجتمع، وإبل
 مستوسقة: أى مجتمعة قال:

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقاتٍ لم يجذن سائقاً
 واتسق: أى اجتمع نوره وصار بدراً، لتركبن: أى لتلاقن، والطبق: الحال
 المطابقة لغيرها، قال الأقرع بن حابس:

إني امرؤٌ حليت الدهرَ أشطره وسائني طبق مفه إلى طبق
 والمراد لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض

وهي الموت وما بعده ، لا يسجدون : أى لا يخضعون ولا يستكثرون ، يععون : أى يجمعون فى صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغى ، والبشارة : الإخبار بما يسر ؛ واستعملت فى العذاب تهكاً ، وممنون : أى مقطوع من قولهم من فلان الحبل إذا قطعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الإنسان راجع إلى ربه فلاقيه ومحاسبه ، إما حساباً يسيراً إن كان قد عمل الصالحات ، أو حساباً عسيراً إن كان قد اجترح السيئات ، أقسم بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، إن البعث كائن لا محالة ، وإن الناس يلقون شدائد الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

ونحو الآية قوله : « بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَتَّبِعُنَّ ثُمَّ لَنَنبُوَنَّ بِمَا عَمِيتُمْ » وقوله : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فن عجيب أمرهم أنهم لا يؤمنون به ، وأعجب منه أنه إذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون له ولا يستكثرون ، لأن العناد صدم عن الإيمان ، ومنعهم من الإذعان ، والله أعلم بما تكنه صدورهم ، وسيجازيهم بشديد العذاب ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم عند ربهم لا ينقطع .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا : إن العرب اعتادت أن تأتي بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمراً ظاهراً لا يحتاج إلى التوكيد ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر ، وثبوته غير محتاج إلى الحلف عليه .

ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لا يكفي القسم لإثباته ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء

على إثبات ما أريد ، لأن إثباته أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأمور الهينة ،
والفرض على هذا الوجه تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه .

(بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا انسق) أى أقسم بهذه الأشياء التى إذا
تدبر الإنسان أمرها ، استدل بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

(اتركبنا طبقاً عن طبق) أى لتلاقن أيها الناس أموراً بعد أمور وأحوالاً بعد
أحوال ، إلى أن تصيروا إلى ربكم وهناك الخلود فى جنة أو نار .

ويدخل فى هذه الأحوال جميع الأطوار التى مرت به منذ أن كان نطفة فى بطن
أمه إلى أن صار شخصاً ، وما مرّ به فى حياته الأولى من طفولة وشيخوخة ثم موته
ثم حشره للحساب ، ثم مصيره إلى الجنة أو النار .

والخلاصة — لتركبنا حالاً بعد حال والحال الثانية تطابق الأولى ، أى لتكوننا
فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والإدراك ،
والألم واللذة ، وإن خالفت فى بعض شئونها الحياة الأولى .

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة على صحة البعث والحساب أنكر عليهم استبعادهم
له فقال :

(فما لهم لا يؤمنون؟) أى فأى شئ حدث لهم حتى جحدوا قدرة الله وأنكروا
صحة البعث ، وكل شئ أمامهم ينادى بباهر قدرته ، ويرشد إلى عظيم سلطانه ؟
وقصارى ذلك — إنه لاشبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها على إنكار
البعث والحساب .

(وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) أى وماذا حدث لهم حتى صاروا إذا
قرئ عليهم القرآن لا يعترفون بإعجازه ، وبلوغه الغاية التى لا يمكن البشر أن يصلوا
إليها فأمرهم عجب ، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة ، وإذا يقتضى أن يعلموا
إعجازه ، ومتى علموه استكانوا وخضعوا له ، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذى جاء به ،
ووجبت عليهم طاعته .

ثم بين السبب في عدم إيمانهم به واقبيادهم له فقال :
 (بل الذين كفروا يكذبون) أى إن الدلائل الموجهة للإيمان جلية واضحة ،
 لكنهم قوم معاندون مصرّون على التكذيب ، إما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله
 عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، وإما لخوفهم من قوت المناصب الدينية ،
 والرياسات التقليدية ، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد
 زائفة ، وأفعال مستهجنة .

(والله أعلم بما يعنون) أى والله سبحانه مطلع على ما فى قلوبهم من أسباب
 الإصرار على الشرك ودواعى العناد والاستمرار على ما هم عليه .
 (فبشرهم بهذاب أليم) جزاء إعراضهم على التكذيب والجحود ، وإصرارهم
 على سبب العمل ، وناسد الاعتقاد .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى لسكن الذين آمنوا
 بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه ، فأولئك لهم أجر لا ينقطع
 مدده ، ولا ينقص منه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة
 والسلام على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشمّل هذه السورة على مقصدين :

- (١) أن الإنسان يلاقى نتائج أعماله يوم القيامة ، فليأخذ كتابه بيمينه أو من
 وراء ظهره .
- (٢) أن الناس فى الدنيا يتنقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة إما فى نعيم بقيم ،
 وإما فى عذاب أليم .

سورة البروج

هي مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة الشمس -
ومناسبتها لما قبلها :

(١) اشتغالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وخاتمته .

(٢) أنه ذكر في السورة السابقة أنه علم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والإلقاء فى حارة القيظ ، وذكر هنا أن هذه شئسنة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .
وفى هذا عظة لقريش ، وتثبيت من يعذبون من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)
قَتِيلِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)
وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) .

شرح المفردات

البروج : واحدها برج ؛ ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء
الإثني عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ؛ فيفسر القمر فى كل برج منها

يومين وثلاث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوماً ثم يستتر ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهراً ، ستة منها في شمال خط الاستواء ، وستة في جنوبه ؛ فالتى في شماله هي : الحَمَل والثور والجوزاء والسَّرَطَان والأسد والسَّنْبُلَة ، والتي في جنوبه هي الميزان والعقرب والقوس والجذى والدَّلو والحوت ؛ وتقطع الثلاثة الأولى في ثلاثة أشهر ، وأولها اليوم العشرون من شهر مارث ، وهذه المدة هي فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أيضاً أولها اليوم الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هي فصل الصيف ؛ وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضاً ، وأولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة هي فصل الخريف ؛ وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضاً أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هي فصل الشتاء ، واليوم الموعود : هو يوم القيامة ، لأن الله قد وعده ، والشاهد والمشهود : جميع ما خلق الله تعالى في هذا العالم ، فإن كل ما خلقه شاهد على جليل قدرته ، وعظيم حكمته .

وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد

وهو مشهود أيضاً لكل ذى عينين ، والأخدود : الشق في الأرض يحفر مستطيلاً ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود : قوم كافرون ذوو بأس وقوة رأوا قوماً من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فملوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا في الأرض وحشوه بالنار وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكياد على جوانب الشق يشهدون الإحراق ، وما تقمراً منهم : أى ما عابوا عليهم ، العزيز : أى الذى لا تغلب قوته ، الحميد : أى الذى يحمد على كل حال .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج ، فإن كواكبها مشهود نورها ، مرئىً ضوؤها ، معروفة حركاتها في طلوعها وغروبها ، وكذلك البروج

نشاهدها وفيها غيب لا نعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لا تراها ولا ندرك حقيقتها .

وأقسم بما هو غيب صرّف ، وهو اليوم الموعود وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب .

وأقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد : أى ذو الحس ، والمشهود : وهو ما يقع عليه الحس .

أقسم سبحانه بكل ما سلف إن من قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم ، واشتدادهم في إيذائهم ، حتى خدّوا لهم الأخاديد وملثوها بالنيران وقذفهم فيها ولم تأخذهم بهم رافة ، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم ، وهم مع ذلك قد صبروا وانتقم الله من أعدائهم ؛ ومن أوقع بهم ، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولئن صبرتم أيها المؤمنون على الأذى ليوفينكم أجركم ، وليأخذن أعداءكم وليُنزلنّ بهم ما لا قبيل لهم به .

وقد حكى الله هذا القصص ، ليكون تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، ووعدا لعباده الصالحين ، وحملهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ، ووعيدا للكافرين وأنه سيحلّ بهم مثل ما حل بمن قبلهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ - فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

الإيضاح

(والسماء ذات البروج) أى قسما بالسماء ذات الكواكب العظيمة التي لم يُستطع لها إحصاء ولا عدّ ، منها ما لا يصل ضوءه إلينا إلا في ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير في الثانية الواحدة ثلثمائة ألف كيلو ، ويصل في سيره إلى القمر في قدر ثانية وثلث الثانية ، ولو جرى حول الكرة

الأرضية لدار حولها في الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة .
فما أبعد الكواكب التي يصل ضوءها إلينا بعد مليون سنة ونصف المليون ،
وإلى أى حد هي عظيمة بالنسبة إلى شمسنا .

وقد أقسم الله بهذه الكواكب لما فيها من عجب الصنعة ، وباهر الحكمة ،
ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة تدل على أن لها صناعا حكما مدبرا ،
إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لتستدل بذلك على عظيم قدرته ،
وجليل حكمته .

(واليوم الموعود) وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على السنة رسله ،
وفيه يتفرد ربنا بالملك والحكم .

(وشاهد ومشهود) أى وبجميع ما خلق الله في هذا الكون مما يشهده الناس
ويرونه رأى العين ، فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر إليه ، ومنهم من لا يستفيد
من ذلك شيئا .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلى ما فيها
من العظم والفخامة ، وليعتبروا بما حضر ، ويبدلوا جهدهم في درك حقيقة ما استتر .
(قتل أصحاب الأخدود) أى أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا
وعذاب الآخرة .

ومن حديث ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن رجل ممن كانوا على
دين عيسى بن مريم فدعا أهلها إلى دينه وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث
عيسى بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فأمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نواس
ملكهم وكان يتمسك باليهودية ، فسار إليهم بجنود من حجير ، فلما أخذهم خيرهم
بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى

بالرجل منهم فيخيرة ، فمن جزع من النار وخاف العذاب ورجع عن دينه ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب الدينوى لثقتة بأن الله يجزيه أحسن الجزاء - ألقاه في النار وكان حولها يشرف على هلاكه .

ثم بين من هم أصحاب الأخدود فقال :

(النار ذات الوقود) أى إن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التى لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، لاجرم يكون حريقها عظيما ، وتهيها متطابرا .
(إذ هم عليها قُود) أى قتلوا ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها ، ويحرقون فيها كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أى إن أولئك الجبابرة الذين أسروا بإحراق المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم ، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم .
وفى هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، إلى ما فيه من إشارة إلى قوة اضطبار المؤمنين وشدة جلدهم ، ورباطة جأشهم ، واستمسكهم بدينهم .
وقد يكون المعنى - يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين .

(وما نعموا معهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أى إن هؤلاء الكفار يعاقبوا المؤمنين إلا على شئ لا يجوز العقاب عليه ، بل ينبقى لكل أحد أن يكون عليه ، ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الايمان بالله تعالى العزيز الغالب الذى يخشى عقابه ، وتهاب صولته ، المنعم الذى يرجى نوابه ، وترتقب نعمائه .

ثم أكد استحقاقه للعزة والحمد بقوله :

(الذى له ملك السموات والأرض) أى لأنه مالك الأمر كله فيهما ، فلا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه ، وأن ما يلاقيه المؤمنون ليس إلا امتحانا وابتلاء مما يحص الله به أهل طاعته ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

ثم ويختم على ما صنعوا بالمؤمنين وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا فقال :
(والله على كل شيء شهيد) فهو عليم بما يكون من خلقه ومجازيهم عليه .

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) .

شرح المفردات

فتنوا : أى ابتلوا وامتحانوا ، عذاب الحريق : هو عذاب جهنم ذكر تفسيراً
وبياناً له ، الفوز الكبير : أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من
رغائب لا تفتنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود وبين ما فعلوه من الإيذاء والتنكيل بالمؤمنين
وذليل ذلك بما يدل على أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء
المؤمنين ، وأنه إن أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب فى الدنيا فهو لم يهملهم ، بل أجل
عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار - ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم ، جزاء
ما اجترحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين ، وما أعد للمؤمنين من
جميل الثواب ، وعظيم الجزاء .

الإيضاح

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب
الحريق) أى إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب ، ليردوهم عن دينهم ،

وثبتوا على كفرهم وعنادهم ولم يتوبوا حتى أخذهم الموت - أعد الله لهم عذابا في جهنم بالحريق .

وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه ، حرصا على ما ألفوا من الباطل ، وتشيعا لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين ، على غير بصيرة ، ولا استشارة للعقل السليم ، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين .

أنظر إلى أصحاب الأخدود تجدهم قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وإلى كفار قريش ترمهم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء ، فعدبوا آل ياسر بفنون من العذاب ، وعدبوا بلالاً بما لا يحصى من ضروب الأذى ، وفعلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم وألحقوا به كثيرا من العنت والأذى ، فرموه بالحجارة حتى أدموه ، بل فعلوا معه أكثر من هذا فخرجوا بجيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه ، ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ، ولكن الله منعه منهم : « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفي قوله : « ثم لم يتوبوا » إيماء إلى أنهم لو تابوا قبل موتهم غفر الله لهم ما قدموا قبل التوبة من ذنب .

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من العذاب الأليم - أرشد إلى ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم ، ليكون ذلك أنكى للأعداء ، وأشد في غيظهم ، وأبعث للأسى والحزن في نفوسهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) أى إن الذين أقروا بوحداية الله وعملوا صالح الأعمال ائتمارا بأوامره وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه - لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وهذا هو الظفر الكبير لهم ، كفاء ما قدموا من إيمان وطاعة لربهم .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْعَفْوَورُ
الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَمَّا لِمَا يُرِيدُ (١٦) .

شرح المفردات

البطش : الأخذ بالعنف والشدة ، يبدي ويعيد : أى هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيدهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى ، ليجازيهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، العفور : أى الذى يغفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته ، الودود : أى الذى يحب أوليائه ويتوَدَد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم ، ذو العرش : أى صاحب الملك والسلطان والقدرة النافذة ، المجيد : أى السامى القدر المتناهى فى الجود والكرم ، تقول العرب : « فى كل شجر نار ، واستمجد المرخُ والعفار » : أى تناهيا فى الاحتراق حتى يقتبس منهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووصف ما أعد لهم من الثواب كفاء أعمالهم - أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة تأكيد لما سبق من الوعيد والوعد . فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته فى النفوس إلا بأمرين :

- (١) الجود الشامل والإنعام الكامل ، وبذا يرجى خيره .
- (٢) الجيوش الجارية والأساطيل العظيمة التى توقع بأعدائه وتشكل بهم ، وبذلك يهاب جانبه ، وإليهما معا أشار بقوله فيما سلف : « العزير الحميد » وهنا زاد الأمر إيضاحا بقوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية .

الإيضاح

(إن بطش ربك لشديد) أى إن انتقامه من الجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالمقوبة - هو الغاية فى الشدة ، والتهاية فى الأذى والألم .

وفى هذا إرهاب لقريش ومن معها ، وتعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن معه .

وقد زاد سبحانه أمر قدرته توكيدا فقال :

(إنه هو يبدى ويبيد) أى إنه يخلق الخلق ابتداء ، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم ترابا ، وإذا كان قادرا على البدء والإعادة فهو قادر على شديد البطش بهم ، لأنهم تحت قبضته ، وخاضعون لسلطانه .

فكأنه سبحانه يقول : إن مرجعكم إلى ربكم ، فإذا لم يعاقبكم فى هذه الحياة على ما تعملون مع أوليائه فلا تظنوا أن ذلك إهمال منه أو تقصير فى شأنهم ، بل آخر ذلك ليوم ترجعون إليه ، وهو اليوم الذى سيكون فيه البطش والانتقام منكم .

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال :

- (١) (وهو الغفور) لمن يرجع إليه بالتوبة ، فيتجاوز عن سيئاته .
- (٢) (الودود) لمن حلصت نفسه بالحبة له .
- (٣) (ذو العرش) أى ذو الملك والعظمة ، والسلطان والقدرة النافذة ، والأمر الذى لا يرد .

(٤) (الجيد) أى العظيم الكرم والفضل .

(٥) (فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) أى لا يريد شيئا إلا فعله وفق إرادته ، فإذا أراد هلاك

الجاحدين المعاندين ونصر أهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك ، وأين هم ممن سبقهم من كانوا أضل منهم وأشد قوة؟

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ؛ والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذامهم ، فرعون : هو طاغية مصر ، ثمود : قبيلة بائنة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا ، محيط : أى هم في قبضته وحوزته كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك ، مجيد : أى شريف ، محفوظ : أى مصون من التحريف ، والتغيير والتبديل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أصحاب الأخدود وبين حالهم ، ووصف ما كان من إيذائهم للمؤمنين — أردف ذلك ببيان أن حال الكفار في كل عصر ، وشأنهم مع كل نبيّ وشيعته جارٍ على هذا النهج ، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويمادونهم ، ولم يرسل الله نبيا إلا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من أقوامهم .

والفرض من هذا كله تسليية النبي وصحبه ، وشد عزائمهم على التدرّع بالصبر ، وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود : فرعون ، وثمود .

الإيضاح

(هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغك ما صدر من أولئك الجنود من التماذى في الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى — إنه قد أتاك خبرهم وعرفت ما فعلوا ، وما جازاهم ربهم به ، فذكر قومك بأيام الله ، وأندركم أنه سيصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم من أهل الضلال .
ثم بين من هم أولئك الجنود فقال :

(فرعون وثمود) وحديث هذين مشهور متعارف بينهم ، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كليم الله موسى من العناد والإصرار على الكفر ، وما كان من عاقبة أمره وأن الله أغرقه في اليم هو وقومه ، وأذاقه الويال في الآخرة والأولى .

كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية ، فدمر بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وهم يمرّون على ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم .

وخلاصة ذلك — إن الكفار في كل عصر متشابهون ، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل ، فهم في عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط ، فقومك أيها الرسول ليسوا ببدع في الأمم ، فقد سبقتهم أمم قبلهم وحل بهم من النكال ما سيحل بقومك إن لم يؤمنوا ، « فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .
وقد أشار إلى أن هذه شئسنتهم في كل عصر ومصر فقال :

(بل الذين كفروا في تكذيب) أي إن الكفار في كل عصر غارقون في شهوة التكذيب حتى لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر ، ولا متسعاً للتدبر ، ولا يزالون في غمرة حتى يؤخذوا على غرّة .

ثم سلى رسوله من وجه آخر فقال :

(والله من وراءهم محيط) أي إنه سبحانه مقتدر عليهم وهم في قبضته لا يجدون مهرباً ، ولا يستطيعون الفرار ، إذا أرادوا .

فلا تجزع من تكذيبهم واستمرارهم على العناد ، فلن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم .

ثم رد على تماديهم في تكذيب القرآن وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال :
 (بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ) أى إن هذا الذى كذبوا به كتاب شريف
 متفرد فى النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .
 واللوح المحفوظ شىء أخبرنا الله به ، وأنه أودعه كتابه ، ولكن لم يعرفنا
 حقيقته ، فعلمنا أن نؤمن به ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يأت به خبر
 من المعصوم صلوات الله عليه وسلامه .

مقاصد هذه السورة

- (١) إظهار عظمة الله وجليل صفاته .
- (٢) إنه يبئد الأمم الطاغية فى كل حين ، ولا سيما الذين يفتنون المؤمنين
 والمؤمنات .

سورة الطارق

هي مكية ، وآياتها سبع عشرة ، نزلت بعد سورة البلد .
مناسبتها لما قبلها :

- (١) أنه ابتداء هذه بالخلف بالساء كالسورة قبلها .
(٢) أنه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه
القول الفصل ، وفيه ردٌ على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)
بِ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) .

شرح المفردات

السماء : كل ما علاك فأظلك ، الطارق : هو الذي يجيئك ليلا ، النجم الثاقب :
هو الذي يتقب ضوءه الظلام كأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه ، حافظ : أى
رقيب يراقبها فى أطوار وجودها ، وهو الله تعالى .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه فى مستهل هذه السورة بالسماء ونجومها الثاقبة - إن النفوس لم تترك
سدى ولم ترسل مهمة ، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصى أعمالها وهو الله سبحانه ،
وفى هذا وعيد للكافرين وتسليم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فكأنه يقول
لهم : لا تحزنوا لإيذاء قومكم لكم ، ولا يضق صدركم لأعمالهم ، ولا تظن أننا نهملهم
ونتركهم سدى ، بل سنجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، لأننا نحصى عليهم أعمالهم

ونحاسبهم عليها ، يوم يعرضون علينا « فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » والعدّ
إنما يكون للحساب والجزاء .

الإيضاح

(والسما) أكثر في القرآن الحلف بالسما وبالشمس والقمر وبالليل ، لأن
في أحوالها وأشكالها وسيرها ومطالعها ومغارها من عجائب وغرائب - دلائل لمن يتدبر
ويتفكر بأن لها خالقا مدبرا يقوم بشئونها ويحصى أمرها ، لا يشركه سواه في هذا
الإبداع والصنع .

(والطارق) أى الكوكب البادى ليلا .

(وما أدراك ما الطارق ؟) يقولون : وما أدراك ما كذا أى وأى شئ يعلمك
حقيقته ؟ ، وهو أسلوب من كلامهم يراد به التفخيم والتعظيم ، كأنه فى نخامة أمره
لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه .
ثم فسر هذا الطارق بقوله :

(النجم الثاقب) أى لا أقسم بكل طارق من الكواكب ، بل أقسم بطارق
معين هو النجم المضى الذى يثقب الظلام ونهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، ونقف
به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان فى معاشه ، وهو الثريا
عند جبهة العلماء ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب لأن له ضوءا ثاقبا لا محالة .
ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إن كل نفس لما عليها حافظ) أى أحلف بالسما والنجم الثاقب إن للنفس
رقيبا يحفظها ويدبر شئونها فى جميع أطوار وجودها حتى ينتهى أجلها ، وذلك الحافظ
والرقيب هو ربها المدبر لشئونها ، المصروف لأموارها فى معاشها ومعادها .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ؟ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يُخْرَجُ مِنْ
 بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)
 فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) .

شرح المفردات

دافق : أى منصبّ بدفع وسيلان وسرعة ، والصلب : الظهر ، والترائب :
 عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وقال الحسن وروى
 عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما
 وهو الموافق لما أثبتته العلم حديثنا كما سيأتى ، ورجمه : أى إعادته ، تبلى : أى تختبر
 وتمتحن ؛ والمراد تظهره ، والسرائر : ما سرّ في القلوب من العقائد والنيات وما خفى من
 الأعمال ، واحدها سريرة ، قال الأحوص :

سببق لها في مضمرة القلب والحشا سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الإنسان لم يترك سدى ، ولم يخلق عبثاً نهبه إلى الدليل
 الواضح على صحة معاده ، وأنه لا بد أن يرجع إلى ربه ليجازيه على ما عمل ، فذكره
 بنفسه ، ولفت نظره إلى كيفية خلقه ومنشئه ، وأنه خلق من الماء الدافق الذى
 لا تصوير فيه ، ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها ،
 ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بالخلافة
 فى الأرض .

فالذى خلقه على هذه الأوضاع قادر أن يعيده إلى الحياة فى يوم تتكشف فيه
 المستورات ، وتبين الخفايا ، فيكون إبدأؤها زيناً فى وجوه بعض الناس ، وشيناً

في وجوه بعض آخرين ، وليس للمرء حينئذ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب ، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام .

الإيضاح

(فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟) أى فلينظر بعقله ، وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه ، وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد لم تشمّ رائحة الحياة قط فهو على إعادته أقدر فليعمل بما به يُسرّ حين الإعادة .

ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) أى خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لسلك من الرجل والمرأة ، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في رحم المرأة .

والخلاصة — إن الولد يتكوّن من منى مدفوق من الرجل ، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المعظمة (الميكروسكوب) ، ولا تزال تجرى حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهي البويضة ، ومتى التقى الجرثومتان اتحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين .

وقد استفتيت في نظرية الحمل وكيفية تكوين الجنين النطاسى البارع عبد الحميد العرابى بك وكيل مستشفى الملك سابقا ، فأجابنى حفظه الله بما يأتى :

كيفية حصول الحمل ونمو الجنين في الرحم

قال الله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » وقال أيضا : « وَنُفِثَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

اعلم أخى وقتك الله أن فى هاتين الآيتين وما شا كلهما من الآيات سرّاً من أسرار التنزيل ووجها من وجوه إعجازه ، إذ فيها معرفة حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإبائها ثلاثة عشر قرناً .

بيان هذا : أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هى عظام صدره ، ويكاد معناها يقتصر على حافة الجدار الصدرى السفلى .

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا فى منشأ خُصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التى حيرت الألباب ، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتى كل منهم من علم ، وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأى السديد .

ذلك أنه فى الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين فى الرحم ينشأ فيه ما يسمى (جسم وولف وقناة) على كل جانب من جانبي العمود الفقري ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى وبعض الجهاز البولى ، ومن جزء آخر تنشأ الخُصية فى الرجل والمبيض فى المرأة .

فكل من الخُصية والمبيض فى بدء تكوينا يتجاوران الكلى ويقع بين الصلب والترائب ، أى ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع .

ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخُصية والمبيض يعتمدان فى نموها على الشريان الذى يمدّها بالدم ، وهو يتفرع من الشريان الأورطى فى مكان يقابل مستوى الكلى الذى يقع بين الصلب والترائب ، ويعتمدان على الأعصاب التى تمد كلا منهما وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدرى العاشر ، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادى عشر ، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها فى الجسم فيما بين الصلب والترائب .

فإذا كانت الخُصية والمبيض فى نشأتها وفى إمدادها بالدم الشريانى وفى ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا فى ذلك كله على مكان فى الجسم يقع بين الصلب

والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم ، وجاء به رب العالمين ، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب .

هذا ، وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف قهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصّفن ، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم .

وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه ، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصّفن ، فتحتاج إلى عملية جراحية حتى تصل إلى وضعها في الموضع الطبيعي .

هذا ، والإنسان بيد أحياته جنينا ، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض مندقة نحو بوق الرحم بالحيوان المنوي الذي تفرزه خُصية الرجل ، ويكون التلقيح في الغالب في داخل أحد البوقين أو فيهما معا ، ثم تسير البويضة في طريقها إلى الرحم حتى تستقر في قرار مكين إلى أجل مسمى .

هذا إذا صادفها أحد الحيوانات المنوية ، أما إذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التي تطرد في خارج الجسم .

ومما يلاحظ أن إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لاعلاقة لها بالاجتماع الجنسي ، غير أن هذا الاجتماع ضروري لعملية التلقيح بالحيوان المنوي الذي يسبح في ماء الرجل .

ومما سبق تعلم أن الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة ؛ أما ماء الرجل فيتكون من الحيوانات المنوية وسوائل أخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنوية ، وهذه السوائل كلها جمعت مباءة ومستقرا للحيوان المنوي الذي بدونه لا يتم التلقيح .

وهكذا الحال في البويضات التي يفرزها مبيض المرأة ، فإنها بعد أن تكون في المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمى حويصلة (جراف) تنمو وتبلغ أشدها في نحو شهر حتى تقترب من المبيض ثم تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتدفع منها البويضات مع السائل الذي يخرج من الفقاعة إلى البوق حيث يقابلها حيوان منوى يقوم بعملية التلقيح — وكلا المائين ماء الرجل وماء المرأة دافق ، أى ينصبّ مندفعاً ، وهذا هو الحاصل فعلاً .

ومن هذا يتبين بوضوح أن الإنسان خلق ونشأ من الماء الدافق (ماء الرجل وأُمّ مائه الحيوان المنوى ؛ وماء المرأة وأُمّ مائه البويضة) الذى ينصب مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض ، ومنشؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كلها بين الصلب والترائب . وقد ثبت في علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علقة ذات خلايا عدّة ، ثم تصير العلقة مضغفة ذات خلايا أكثر عدداً ، ثم تصير المضغفة جنيناً صغيراً وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة في أول الأمر ، فإذا تمّ نموها كونت جسم الإنسان . وإذا هدى الفكر إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان ، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر ، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة في الكون ؛ فالماء متولد من الأطعمة التى يتناولها الإنسان ، فجمعها الله ، ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءهما في مكان واحد ، ثم خلق منه الولد ، وليس في إعادته مثل ذلك ، فهى أهون ، ومن ثم قال :

(إنه على رجه لقادر) أى إن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء من هذه

المادة — قادر أن يرده حياً بعد أن يموت .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » . وأصرح منهما قوله :

« وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ثم بين وقت الرجوع فقال :

(يوم تبلى السرائر) أى هو قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة فى اليوم الذى تنكشف فيه السرائر، وتنضح الضمائر، ويتميز الطيب من الخبيث، فلا يبقى فى سريرة سرّ، بل تنقلب كل خفّية إلى الجهر، ولا يكون جدال ولا حجاج، ولا يبقى لذوى الأعمال إلا انتظار الجزاء على ما قدموا، فإما حلول فى نعم، وإما مصير إلى عذاب أليم.

(فما له من قوة ولا ناصر) أى فلا تكون لأحد قوة على الإفلات مما قدر له جزاء عمله إن كان مسيئاً، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه. والخلاصة — إن القوة التى بها يدافع الإنسان عن نفسه، إما من ذاته وقد نفاها بقوله: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ» وإما من غيره وقد نفاها بقوله: «وَلَا نَاصِرٍ».

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا (١٧).

شرح المفردات

الرجع: إعادة الشئ إلى حال أو مكان كان فيه أولاً، والمراد به المطر، وسمى بذلك لكونه يعاد إلى الأرض من السماء، والصدع: الشق الناشئ من تفرق بعض أجزاء الأرض وانفصال بعضها من بعض بالنبات، فضل: أى يفصل بين الحق والباطل، ويقطع الجدل والراء، يكيدون كيدا: أى يعملون المكيد فى إبطال أمره، وإطفاء نوره، وأكيد كيداً: أى أقابلهم بكيدى فى إعلاء أمره، وانتشار نوره، رؤيدا: أى قريباً.

المعنى الجملى

بعد أن بين قدرته تعالى على إعادة الإنسان بعد الموت ، ولقت النظر إلى التدبر في برهان هذه القدرة — شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وصحة ما يأتهم به من عند الله ، وأهم ذلك القرآن الكريم الذى كانوا يقولون عنه : إنه أساطير الأولين ، فأقسم بالسماء التى تفيض بمانها ، والأرض التى تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنباتها ، إنه أقول حق لا ريب فيه .

ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التى هم عليها — قوم ماكرون لا يريدون بك إلا السوء ، وسيأتهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فلا يحزنك ماترى منهم ، ولا تستبطن حلول النكال بهم ، بل أمهلهم قليلا وسترى ماسيحل بهم .

ولا يخفى ما فى هذا من وعيد شديد بأن ماسيصيبهم قريب ، سواء أكانت في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت ، ووعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل داع إلى الحق بأنهم سيبلغون من النجاح ما يستحقه عملهم ، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون .

الإيضاح

(والسما ذات الرجع) أى قسما بالسماء ذات المطر ، وهو أنفع شئ ينتظره الحاطبون من السماء ، إذ يبدل جذبهم خصبها ، ويعيد موات أرضهم حيا ، ويصير به لقب صحرائهم هواء عليلا .

(والأرض ذات الصدع) أى والأرض التى تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم وحياة أنعامهم ، وهم فى بلاد قفراء جدياء .

ونظير هذا قوله : « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إنه لقول فصل . وما هو بالهزل) أى قسما بالسماء والأرض إن هذا القول الذى

جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول حق لا مجال للريب فيه ، وهو جِدٌّ لاهزل فيه ؛ فمن حقه أن يهتدى به الفؤاد ، وتخضع له رقاب العنابة .

أخرج الترمذى والدارمى عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء ، ولا تشعب منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن لما سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم .

ثم بين ما يدبرونه للمؤمنين وما تحويه صدورهم من غلٍ لهم فقال :

(إنهم يكيدون كيدا) أى إنهم يمكرون بالناس بدعوتهم إلى مخالفة القرآن بإلقاء الشبهات كقولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » . قولهم : « مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أو بالظن فيه يكون الرسول ساحرا أو مجنونا أو شاعرا ، أو تبليتهم قتله ، كما جاء فى قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

بعدئذ ذكر ما قابلهم ربهم به وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال :

(وأكيد كيدا) أى وأقابل كيدهم بنصر الرسول وإعلاء دينه ، وجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد سمي مجازاتهم كيدا منه ، للتجانس فى اللفظ كما قال : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ » . وقال عزروبن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثم أمر رسوله أن يتأني عليهم ، ليرى أخذه تعالى لهم فقال :
 (فهل الكافرين) أى سر في دعوتك ولا تستعجل عذابهم ، فإننا سنمهلهم
 ليزدادوا إثمًا ، حتى إذا أخذناهم لم يبق لهم من راحم .
 ثم أكد طلب الإمهال وأقته بوقت قريب فقال :
 (أمهلهم ويؤدوا) أى إنا سنمهلهم قليلا ، وسترى ما يحل بهم من العذاب
 والنكال .
 وفي هذا بعث للطمانينة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يحشون صولة الكفار
 ويحذرون اعتداءاتهم التى لاحد لها ، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم على ما هم فيه
 من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين .

ونحو الآية قوله : « كُتِّمَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .
 وصل ربنا على محمد وآله ، وقنا عذاب الجحيم .

مقاصد السورة

- (١) إن كل نفس عليها حافظ .
- (٢) إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق كرة أخرى .
- (٣) إن القرآن منزل من عند الله وأن محمداً رسول الله .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالانتظار حتى يحل العقاب بالكافرين .

سورة الأعلى

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة التكوير .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق
النبات بقوله : « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . وذكر هنا خلق الإنسان في قوله :
« خَلَقَ فَسَوَّى » . وخلق النبات في قوله : « أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى »
وقصة النبات هنا أوضح وببسط أكثر ، وخلق الإنسان هناك أكثر تفصيلا .
أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى -
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ) وإن وافق يوم الجمعة قرأها جميعا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

شرح المفردات

التسبيح : التنزيه ، خلق : أى خلق الكائنات ، فسوى : أى فسواها ووضع
خلقها على نظام كامل ، لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، قدر : أى قدر لكل حى
ما يصلحه مدة بقائه ، هدى : أى هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له ، والمرعى :
كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة ، والغثاء : ما يقذف به
السيول إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات ، والأحوى : الذى يضرب لونه إلى
السواد . قال ذوالرمة :

لَمَيَّاهُ فِي شَقَّتِهَا حُوَّةٌ لَعَسَ وَفِي النَّاتِ فِي أَنْبِهَا شَبُّ

المعنى الجملى

أمر سبحانه رسوله أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به ، واسم الله ما يعرف به ،
والله إنما يعرف بصفاته من نحو كونه عالماً قادراً حكماً ، وهذا الاسم هو الذى
يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام ، وهو المراد بالوجه فى قوله : « وَيَبْسُقِ وَجْهَهُ
رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وهو المذكور فى قوله : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ
كُلَّهَا » أى علمه رسوم الأشياء وما تعرف به .

فالله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق به من
شبه المخلوقات ، أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً له ،
فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق الكائنات وهو الذى أوجدها وسواها ، وأنه
هو الذى أخرج المرعى ثم جعله جافاً حتى لفظه السيل بجانب الوادى .

الإيضاح

(سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله فى ذاته
وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا تطلق
اسمه على غيره زاعماً أنه يشاركه فى صفاته .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى فقال :

(١) (الذى خلق فسوياً) أى الذى خلق الكائنات جميعاً فسوى خلقها
وجعلها منسقة محكمة ولم يأت بها متفاوتة غير ملتزمة ، دلالة على أنها صادرة عن عالم
حكيم مدبر أحسن تديرها ، فأحكم أسرها .

(٢) (والذى قدر فهدي) أى الذى قدر كل واحد منها على ما يستحقه ،
ويكون به استقرار شأنه ، فقدّر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدّر الأرض
وما فيها من المعادن ، وما يظهر على وجهها من النبات ، وما يعيش عليها من الحيوان .

ثم هدى كل دابة إلى استعمال ما يصلحها ، وما هو أفسد بحاجتها ، بما خلق فيها من اللبول والإلهامات ، لتحصيل مالها من مقاصد وغايات .

(٣) (والذي أخرج المرعى) أى والذي أنبت النباتات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية .
(فجعله غشاء أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشياً بالينا كالغشاء يميل لونه إلى السواد ، فهو القادر على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله ، لا الأصنام التى عبدها الكفرة الفجرة .

وقصارى ماسلف — إنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته آثاره فى خلقه ، وألا تدخل فى هذه الصفات ما لا يليق به ، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء ، أو وصفوه بما به يشبه خلقه .

وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الامم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن نتوجه إليها عقولنا إلا بما نلاحظ من هذه الصفات بما يدل عليها .

سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)
وَالْيُسْرَى لِلْيُسْرَى (٨) .

شرح المفردات

سُنْفِرُكَ : أى نجعلك قارئاً للقرآن ، فلا تنسى : أى فلا تنساه بل تحفظه ،
وَالْيُسْرَى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسرى .

المعنى الجملي

بعد أن أمر رسوله بتسبيح اسمه ، وعلم أمته المأمورة بأمر الله له ، كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذي تسبحه على نحو ما ذكرنا ، ولا يكفل ذلك إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، فكان هذا مدعاة إلى شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على حفظه ، ومن ثم وعده بأنه سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيهه ، وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته ، وأحكام شرائعه ، كما وعده بأن ما يقرئه إياه لا ينساه .

الإيضاح

(سنقرئك فلا تنسى) أى سننزل عليك كتابا تقرؤه ، ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك .
وقد كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه ، فوعد بأنه لا ينساه .
ونحو الآية قوله : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ »
وقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنُهُ » .
وخلاصة ذلك — إنا سنشرح صدرك ، ونقوي ذاكرتك ، حتى تحفظه بسماعه مرة واحدة ، ثم لا تنساه بعدها أبدا .
ولما كان هذا الوعد على سبيل التأييد يوم أن قدرته تعالى لاتسع تغييره جاء بالاستثناء فقال :

(إلا ما شاء الله) أى فإن أراد أن يفسيك شيئا لم يعجزه ذلك .
قال الفراء : إنه ما شاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا ، إلا أن القصد من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيره ناسيا لقدرة على ذلك كما جاء في قوله :
« وَلَنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » .

وإننا لنقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك .
 وقصارى هذا — إن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالى قادر على أن ينسيه ،
 وأن عدم النسيان فضل من الله وإحسان لآمن قوته .
 ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال :
 (إنه يعلم الجهر وما يخفى) أى إن الذى وعدك بأنه سيقربك ، وأنه سيجعلك
 حافظا لما تقرأ فلا تنساه — عالم بالجهر والسر ، فلا يفوته شيء مما فى نفسك ،
 وهو مالك قلبك وعقلك ، وخافى سرى وجهك ، ففى مقدوره أن يحفظ عليك
 ما وهبك وإن كان من خفيات روحك ، ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه ، لأنه
 ليس فى قدرتك أن تخفى عنه شيئا .

ولما كان فى الوعد بالإقراء الوعد بتشريع الأحكام ، وفيها ما يصعب على
 المخاطبين احتمالها — أردف ذلك الوعد بما يزيد حلاوة فى النفوس فقال :
 (ونيسرك لليسرى) أى ونوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس
 قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ورحم الله البوصيرى حيث يقول :
 لم يمتحننا بما تعيا العقولُ به حرصاً علينا فلم ترتب ولم نهمهم
 وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل ، وليس الفعل هو الميسر للإنسان ،
 من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة ، والإرادة النافذة
 لإيجاده ، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التى توصل إليه ، كما جاء فى الحديث :
 « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » .

فَذَكَرْهُ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيِّدَ كَرْمٍ مِنْ يَحْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا
 الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
 وَلَا يَحْيَا (١٣)

شرح المفردات

التذكر: أن يتنبه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ، ومن يخشى الله صنفان : مدعن معترف بالله وبيعه للعباد للشواب والعقاب ، ومتردد في ذلك ، الأشقى: هو المماند المصّر على الجحد والإنكار، المتمكن من نفسه الكفر، يصلى النار أى يذوق حرها ، والنار الكبرى هى أسفل دركات الجحيم ، لا يموت أى فيستريح ، ولا يحيا أى حياة طيبة فيسعد كما أشار إلى ذلك شاعرهم فقال :

ألا ما لنفسٍ لانموت فينقضى عنها ولا تحيا حياةً لها طعمُ

المعنى الجملى

بعد أن وعد سبحانه رسوله بذلك الفضل العظيم وهو حفظ القرآن وعدم نسيانه — أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم — وتلبيهم من غفلاتهم، وتوجيههم إلى ما فيه الخير لهم ، وبين أن الذكرى لا تنجع إلا في القلوب الخاشعة التي تخشى الله وتخاف عقابه ؛ أما القلوب الجاحدة المماندة فلا تجدى فيها الذكرى شيئاً ، فهون على نفسك ، ولا يحزُ نذك جحدم وغنادم كما أشار إلى ذلك في آية أخرى فقال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم ذكر أن أولئك الجحدة العصاة يكونون في قعر جهنم لاهم يموتون ولا يسعدون بحياة طيبة .

الإيضاح

(فذكرو إن نفعت الذكرى) أى فذكر الناس بما أوحينا به إليك ، واهدم إلى ما فيه من بيان الأحكام الدينية ، فإن أصرّ المماندون على غنادم ولم يزدم

وعظك إلتاماديا في الجحود والإنكار « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »
حرصا على إيمانهم ، وحرزنا على بقائهم على كفرهم ، وادعُ من تعلم أنه يجيبك
ولا يجيبك ولا يؤذيك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(سيد كر من يخشى) أى إنما يذتفع بتذ كيرك من يخشى الله ويخاف عقابه ،
لأنه هو الذى يتأمل في كل ماتذ كره له ، فيقبين له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل
الحق الذى يجب المعول عليه .

وفى التعبير بقوله (سيد كر) إيماء إلى أن ماجاء به الرسول بلغ حدًا من
الوضوح لا يحتاج معه إلا إلى التذ كير فحسبُ ، وإمما الذى يحول بينهم وبين
اتباعه واقتفاء آثاره - تقليد الآباء والأجداد فكانهم عرفوه واستيقنوا صحته ، ثم
زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آباءهم من قبل :

ثم أشار إلى عدم جدواها بالنظر للمعاندين الجاحدين فقال :

(ويتجنَّبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى) أى ويتعد عن هذه التذ كرة
المعاندين المصرِّ على الجحود عنادا واستكبارا ، وهو الذى يذوق حر النار الكبرى
فى دركات جهنم كما قال : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » إذ
لا يلقى بحكمة الحكيم المتعالى أن يسوى بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتركب
أشنع الذنوب ، ومن كان نقيَّ الصَّحيفة ميمون النقيبة ، مطيعا لأمره ، مؤديا
فرائضه ، منتهيا عن الفحشاء والمنكر .

وقصارى ماسلف - إن الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم
أقسام ثلاثة :

(١) عارف صحتها ، موقن بصدقها ، لا يدور بخلفه تردّد ولا شك ، وهذا
هو المؤمن الكامل الذى يخشى ربه .

(٢) متردد متوقف إلى أن يقوم لديه البرهان ، فإذا هو سرح له بادر إلى
التصديق بها ، وهذا أدنى من سابقه .

(٣) شقى معاند لا يلين قلبه للذكرى ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولا ، وهو شر الأقسام الثلاثة ، وأبعدها من الخير .

ثم بين عاقبة هذا الأشقى ومآل أمره فقال :

(ثم لا يموت فيها ولا يحيى) أى ومن شقى هذا الشقاء ، ولقى هذا العذاب بتلك النار - يخلد فيها ، ولا يقف عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، فلا هو يموت فيستريح ، ولا يحيى الحياة الطيبة فيسعد بها .

ونحو الآية قوله : « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .
والعرب تقول لمن هو مبتلى بمرض يقعه : لاهو حتى فيرجى ، ولا ميت فينسى .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَتَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) .

شرح المفردات

أفلق : أى فاز ونجا من العقاب ، وتزكى : أى تطهر من دنس الرذائل ؛ ورأسها جحد الحق وقسوة القلب ، وذكر اسم ربه : أى ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال ، فصلى : أى خشع وخضعت نفسه لأوامر بارئه ، تؤثرون : أى تفضلون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر فى الدلائل التى تدل على وجود الله ووحدانيته وإرسال الرسل وعلى البعث والحساب - أتبعه بالوعد لمن زكى نفسه

وطهرها من أدران الشرك والتقليد للكبراء والأجداد - بالفوز بالفلاح والظفر بالسعادة في دنياه وآخرته .

ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حب العاجلة ، وتفضيلها على الآجلة ، ولو فكروا قليلا لاستبان لهم أن الخير بكل الخير في تفضيل الثانية على الأولى ؛
ثم أرشد إلى أن أسس الدعوة الدينية في كل الأديان واحدة ، فما في القرآن هو ما في صحف إبراهيم وموسى .

الإيضاح

(قد أفلح من تزكى) أى قد أدرك الفلاح ، وظفر بالبقية من طهر نفسه ونقاها من أوضار الكفر ، وأزال عنها أدران الشرك والآثام .
ومن هذا تعلم أن تزكية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل .

(وذاكر اسم ربه فصلى) أى وأحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكمال فضع لجبروته وقهره ، فإن المرء متى تذكر ربه العظيم وجل قلبه ، وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه ، ورهبة لجلاله كما قال في آية أخرى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » .

ثم رد سبحانه على قوم ممن قست قلوبهم ، ولم يأخذوا من العبادات إلا بصورها وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده بقوله :

(بل تؤثرن الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى) أى أتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل ، لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تفضلون الآخرة على الدنيا ، كما يرشد إلى ذلك العقل ، ويهدى إليه الشرع ؛ فتتاع الآخرة بدائم ونعيمها لا ينزل ، ولا تنغيص فيه ولا من ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار ، وتحوط به الآلام ؛ فمن استعجل هذا النعيم ، واستحب زينة الدنيا

لا يكون مصدقا بالآخرة ونعيمها ، أو يكون إيمانه إيمانا لا يجاوز طرف لسانه ، ولا يصل إلى قلبه ، فلا يجازى عليه الجزاء الذى وُعد به المؤمنون .

ثم بين أن الأصول العامة التى جاءت فى هذه الشريعة هى بعينها التى جاءت فى جميع الشرائع السماوية فقال :

(إن هذا فى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) أى إن ما أوحى به إلى نبيه من أمر ونهى ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، فدين الله واحد ، وإنما تختلف صورته ، وتعدد مظاهره ، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو موسى فعليهم أن يؤمنوا بحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت إلا بما جاء فى صحفهم ، وإنما هو مذكر أو محى لما مات من شرائعهم .

ومحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَكَنَزِيلٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوْلِيَاءِ » وقوله جل شأنه : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وقصارى ذلك — أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعيا إلى وجهها الصحيح الذى أفسده كثر الغداة ومر العشى ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

اللهم وفقنا لسلك دينك الحق ، واهدنا إلى صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

سورة الغاشية

هي مكية ، وآياتها ست وعشرون ، نزلت بعد سورة الناريات .
ومناسبتها لما قبلها - أنه أشير في السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار
إجمالاً ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُودُ يَوْمِئِذٍ خَاشِعَةً (٢) عَامِلَةٌ
نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)

شرح المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، خاشعة :
أى ذليلة : عاملة : أى وقع منها عمل فى الدنيا ، ناصبة : أى تعية من قولهم نصب
فلان بالكسر : أى تعب ، تصلى من قولهم صلى النار (بالكسر) أى قاسى حرها ،
حامية : أى متناهية فى الحر من قولهم حميت النار إذا اشتد حرها ، والعين : ينبوع
الماء ، والآنية الشديدة الحر ، والضرير : شجر ذو شوك لائظ بالأرض ، فإذا كان
رطباً سمى بالشُّبْرِيقِ ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعاً بان عنه النحائص

الإيضاح

(هل أتاك حديث الغاشية) أى هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه ،
وإننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه ، وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التي من حقها أن تتناقلها الرواة ، ويحفظها الوعاة .

ثم فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة . وفريق المؤمنين البررة ، وقد أشار إلى الأولين بقوله :

(١) (وجوه يومئذ خاشعة) أى وجوه يومئذ يظهر عليها الخزي والهوان مما

ترى وتشاهد من الهول .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ »

وقوله : « وَتَوَّاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » .

والخشوع والذل وإن كان في الحقيقة لأرباب الوجوه ، نسب إلى الوجوه لما

كان أثره يظهر عليها .

ثم وصف الوجوه بصفات أخرى فقال :

(عاملة ناصبة) أى إن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون

في أعمالهم ، لكن لم يتقبلها ربهم ، لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله ،

وهو الدعاة الأولى في قبول العمل عنده ، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالى ،

ولأنهم كانوا يجتهدون في مشاققة الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا .

والخلاصة — إن هؤلاء الكفار وقع منهم في الدنيا عمل ، وأصابهم فيه تعب

ونصب ، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئا ، فأثار الخيبة وحبوط العمل بادية

على وجوههم :

ثم ذكر جزاءها في هذا اليوم فقال :

(تصلى نارا حامية) أى هذه الوجوه تقاسى حر النار وتعذب بها ، لأن أعمالها

في الدنيا كانت خاسرة ، غلبها الشر ، وجانبها الخير ، وهذه النار الحامية لانعرف
 كتبها ، ولكن علينا أن نؤمن بها ، وبأن حلفاء الباطل يصلونها .
 (تسقى من عين آتية) أى إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا
 ما يطفى غلَّتْهم ، جرى لهم بماء من ينبوع بلغ من الحرارة غايتها ، فهو لا يطفى لها ،
 ولا ينقع غلَّة .

وبعد أن ذكر شرابهم أردفه بوصف طعامهم فقال :

(ليس لهم طعام إلا من ضريع) أى إنهم إذا أحسوا بالجوع وطلبوا الطعام
 أتى لهم بالضريع وهو ذلك المرعى السوء الذى لاتعقد عليه السائمة شجرا ولا لحما ،
 وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ، والمراد بهذا كله أنه يؤتى لهم بردىء الطعام .
 ثم وصف هذا الضريع بأنه لا يجدى ولا يفيد فقال :

(لا يسمن ولا يفتى من جوع) أى إن هذا الطعام لا يدفع جوعا ، ولا يفيد
 سمنا ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل في الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام
 بالضريع تشبيها له به ، وإلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل مواد على النحو
 الذى يكون في الدنيا ، بل هو عالم خلود وبقاء ، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام
 آلام شقاء ، فكل ما في ذلك العالم إنما يقع بينه وبين ما في عالمنا نوع مشابهة ،
 لاتفاق ولا مجانسة .

وقد جاء في سورة الحاقة في طعام الكافرين : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ »
 وفي سورة الواقعة : « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الضَّالُّونَ المُكذَّبُونَ . لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرٍ
 مِنْ زَقُّومٍ » وفي سورة الدخان : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامٌ الْأَئِيمِ » .

فهذا كله يدل على أن طعام النار شئ يوافق النشأة الآخرة ، عبر عنه بعبارات
 مختلفة ، ليصور في أذهاننا بشاعته وخبثه ، لتنفرد منه نفوسنا ، وتطلب كل وسيلة
 للفرار منه ، فتبتعد عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الخاسرة .

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَآغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣)
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

شرح المفردات

ناعمة : أى ذات بهجة وحسن ، عالية : أى فى المكان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، واللاغية : اللغو والكذب والبهتان ، عين جارية : أى ينبوع ماء جار ، والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض ، والأكواب : واحدها كوب وهو ما لا عروة له من الكيزان ، موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب ، والنمارق : واحدها نمرة (بضم النون وكسرهما) وهى الوسادة قال :

كحولٌ وشبَّان حسان وجوهم على سُررٍ مصفوفةٍ ونمارقٍ
والزرابي : واحدها زربي (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط ؛ وأصل الزرابى أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة ، ويقال أزرب النبات إذا صار كذلك ، سموها البسط لشبهها به ، ومبثوثة : أى مفرقة فى المجالس بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

الإيضاح

بعد أن وفى الكفرة الفجرة حقهم من الوصف - وصف أهل الإخلاص والصدق ، لتقر أعينهم بما سيلقون من فضله فقال :

(وجوه يومئذ ناعمة) أى ووجوه يومئذ ذات نضرة وبهجة كما قال : « تعرّف

فِي رُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ النَّعِيمِ» ولا تكون كذلك إلا إذا كانت منعمة فرحة بما لاقت
جزاء نعيمها في الدنيا ورضى الله عنها ومن ثم قال :

(لسعيا راضية) أي إنهم جميعا يسعون في العمل لله حين رأوا ثمرته وعاقبته
الحسنى ، كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه الجميل ، ويظهر له منه عاقبة حميدة ،
فيقول ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت إلى الصواب فيما فعلت .

وبعد أن وصف أهل الثواب وصف ديارهم بسبعة أوصاف فقال :

(أ) (في جنسة عالية) أي عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأماكن ،
لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل
من بعض .

وقد يكون المراد منه العلو في الدرجة ، لأن نعيم الجنة بمضه أرفع من بعض ؛
فالنعيم الذي يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أعلى منزلة وأرفع
قدرا مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان .

(ب) (لا تسمع فيها لاغية) أي إنها منزهة عن اللغو ، إذ أنها منزل جيران
الله وأحبابه ، وقد نالوها بالجد والعمل لا باللغو ، ومنازل أهل الشرف في الدنيا تكون
مبرأة من اللغو والكذب والبهتان ، فكيف بأرفع الجالس في جوار رب العالمين ،
ومالك قلوب الخلق أجمعين .

(ج) (فيها عين جارية) أي في تلك الجنة ينبوع ماء جار ، والمياه الجارية
من الينابيع تكون صافية ، وفي منظرها مسرة للنفوس ، وقرّة للعيون ، وقد افتخر
بمثلها فرعون فقال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي » .

(د) (فيها سرر مرفوعة) أي مرفوعة عالية إذا جلس عليها المؤمن رأى جميع
ما أعطاه الله من النعيم ورأى من في الجنة .
وفي ذلك من التشريف والتكريم ما لا يخفاء فيه .

(هـ) (وأكواب موضوعة) على حافات العيون كما أرادوا الشرب وجدوها .
 (و) (ونمارق مصفوفة) أى ووسائد مصفوف بعضها إلى جوانب بعض ،
 فإن شاءوا جلسوا عليها ، وإن أرادوا استندوا إليها ، وإن أحبوا أن يجلسوا على
 بعضها ويستندوا إلى بعض فملوا .

(ز) (وزرابى مبنوثة) أى وبسط مبسوطة فى المجالس ، بحيث يرى فى كل
 مجلس من مجالسهم منها شىء ، كما يرى فى بيوت المترفين وذوى الثراء فى الدنيا .

وقد ذكر سبحانه كل ما سلف تصويرا لترف أهل الجنة تصويرا يقربه من
 عقولهم ، ويستطيعون به إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر
 ويعلو فوق متناول الإدراك ؛ فالأشياء التى عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التى
 فى هذه الحياة بأسمائها ، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، كما أثر عن
 ابن عباس أنه قال : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
 رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
 سُطِحَتْ (٢٠) .

شرح المفردات

الإبل : واحدها بعير ولا واحد لها من لفظها كنساء وقوم ، ورفع السماء :
 إمساك ما فوقنا من شمس وأقمار ونجوم ، ونصب الجبال : إقامتها أعلاما
 للسائرين ، وملجأ للجائرين ، وسطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها
 والمشى فى مناكبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه محجىء يوم القيامة ، وبين أن الناس حينئذ صنفان أشقياء وسعداء ؛ وأن الأشقياء يكونون في غاية الذل والهوان ، وأن السعداء يكونون يومئذ مستبشرين بادية على وجوههم علام المسرة — أعقب هذا بإقامة الحججة على الجاحدين المنكرين لذلك ، وتوجيه أنظارهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت أبصارهم من سماء تُظِلُّ ، وأرض تَقَلُّ ، وإبل ينتفعون بها في حلهم وترحالهم ، ويأكلون من لحومها وألبانها ويلبسون من أوبراها ؛ وجبال تهديهم في تلك القيافي والقفار .

أخرج عبد بن حميد في آخرين عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأُنزل الله تعالى هذه الآيات .

الإيضاح

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) أى أينكر هؤلاء المشركون ما ذكرنا من أمر البعث وما يتصل به من سعادة وشقاء ، ويستبعدون وقوعه ، ولا يتدبرون في الإبل التي هي نُصِبَ أعينهم ، ويستعملونها في كل حين ؟ ولو أنهم تدبروا في خلقها لرأوا خلقاً بديعاً لا يشاكل خلق أكثر الحيوان ، فلها من عظم الجثة ، وشدة القوة ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش مالا يشاركها فيه حيوان آخر — إلى أنها تحتمل المشاق ، وتنهض بالأوقار ، وتقطع شاسع المسافات ، حتى لقبوها : سفينة الصحراء . قال شاعرهم :

ما فرَّقَ الأُلاءَ فَبَعَدَ اللهُ إلا الإبلُ

وما غرابُ البَيْتِ إلا ناقةٌ أو جمل

إلى أنها تنقاد للصغير والكبير وتحمل أذاهما . قال العباس بن مرداس :
وتضر به الوليدة بالهرأوى فلا غيرٍ لديه ولا تكير

وتكتفى فى المرعى بما تيسر لها من الشوك والشجر ، إلى أنها أعجب ما عندهم وهم واقفون على أحوالها ، عالمون بطباعها .

وجاء الكلام بطريق الاستفهام ، إنكاراً عليهم ، وتوبيخاً لهم على جحد أمر البعث .

(وإلى السماء كيف رقت) أى ألا يشاهدون السماء وقد رقت رفعا سحيق المدى بغير عمد ؟ .

(وإلى الجبال كيف نصبت) أى وإلى الجبال كيف وضعت وضعا ثابتا لامتدّان فيه ولا اضطراب ، فيتسنى ارتقاؤها فى كل حين ، وتجعل أمانة للسالكين فى تلك الغيايى والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ، وريّ الحيوان .

(وإلى الأرض كيف سطحت) ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها ، وانتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

وقصارى ماسلف — إنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وفكروا فيها ، لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ، ولا تحفظ إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه المخلوقات وسواها ، وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة — قادر على أن يرجع الناس فى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله ، وأن ينشئ النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها ، فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيام سببا فى جحده وإنكاره .

وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر ، لأن الناظر منهم يفكر فى أقرب الأشياء إليه ، فهو يرى بعينه الذى يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأى السماء ، ثم إذا التفت يمينه أو يسرة رأى ما حوالىه من الجبال ؛ فإذا مدّ ناظره أمامه أو تحته رأى الأرض ، فالعربى يرى ذلك كل يوم ، ومن ثمّ أمره الله بالتدبر فيها .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ
 تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)
 ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

شرح المفردات

فذكر : أى عظ قومك وابعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ،
 بمصيطر : أى بمسلط تجبرهم على ما تريد ، إياهم : أى رجوعهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دليل قدرته تعالى على بعث الأجساد ، ولقت أنظار
 الجاحدين إلى مظاهر قهوره وغلبيته لهذا العالم ، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم
 فى باطلهم ، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره صلى الله عليه وسلم
 أن يذكركم بهذه الأدلة وأشباهاها مما لا يبق معه مجال للشك والتردد .

الإيضاح

(فذكر) بآياتى ، وعظهم بحججى ، وبلغهم رسالاتى ، وحذرهم أن يتركوا
 ذلك ؛ ثم بعدئذ لاتذهب نفسك عليهم حسرات إن لم يؤمنوا .
 ثم علل الأمر بالتذكير فقال :

(إنما أنت مذكور) أى إنما بعثت للتذكير فحسب ؛ وليس من الواجب عليك
 أن يؤمنوا ؛ فما عليك إلا التبشير والتحذير ، فإن آمنوا فقد اهدوا إلى ما سوق إليه
 الفطرة ؛ وإن أعرضوا فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتعلبت عليهم الشهوات ؛
 واستولت على عقولهم الأهواء والجهالات .

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله :

(لست عليهم بمسيطر) أى لست عليهم بمسلط تجبرهم على ما تريد ، وتمهد أحوالهم ، وتكتب أعمالهم ، فلم تُؤت قوة الإكراه على الإيمان ، والإجاء إلى ما تدعوهم إليه كما قال : « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » وقال : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرُوكَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِيدٌ » .

(إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر) أى إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على مافى نفوسهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم ؛ فمن تول منهم وأعرض عن الذكرى ، وجحد الحق المعروض عليه ؛ فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ؛ وقد يضم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أوسى الذرية أو غنيمه للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم .

ثم أكد تعذيب الله لمن تولى وكفر فقال :

(إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) أى لامفرّ المعرضين ، ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ؛ فإنهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته .

وصلى الله على محمد وآله البررة الكرام .

مقاصد هذه السورة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

- (١) وصف أهل الجنة ووصف أهل النار .
- (٢) ذكر عجائب الصنعة الإلهية .
- (٣) أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع .

سورة الفجر

هي مكية ، وآياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الليل .
ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذكر في تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

(٢) أن القسم الذي في أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) .

الإيضاح

(والفجر) الفجر هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق ، وهو كقوله :
« وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » وقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » .

(وليال عشر) هي عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، فيكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتى يسطع النهار ، ولا يزال الضوء منتشرا إلى الليل الذي بعده .

وضوء الأهله فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الليل
يقالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبته ، وهذه الليالى العشر غير متعينة
فى كل شهر ، فإن ضوء الهلال قد يظهر حتى تغلبه الظلمة فى أول ليلة من الشهر ،
وقد يكون ضئيلا يغيب ضوءه فى الشفق فلا يعد شيئا .

والخلاصة — إن الليالى العشر تارة تبتدى من أول ليلة ، وأخرى من
الليلة الثانية .

(والشفع والوتر) أى الزوج والفرد من هذه الليالى ؛ فهو سبحانه أقسم بالليالى
جملة ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد .

وبعد أن أقسم بضرور من الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة فقال :

(والليل إذا يسر) أى والليل إذا يمضى ويذهب ، وهو كقوله : « وَاللَّيْلِ
إِذَا أَذْبَرَ » وقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » .

ونعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرها بحسب
الأزمنة والفصول — مما لا يجدها إلا مكابر ، لاجرم أقسم ربنا بهما تفيها إلى أن
تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم ، عالم بما فى ذلك من المصلحة لعباده .

أنظر إلى ما فى إقبال الصبح من عيم النفع ، فإنك لترى أنه يفرج كربة الليل
وينبه إلى استقبال العمل ، وكذلك تدرك ما فى الليالى المقمرة من فائدة ، فهى
تستميل النفس إلى النقلة ، وتيسر للناس النجعة ، وبخاصة فى أيام الحر الشديد
فى بلاد كبلاد العرب .

وكذا نعرف ما فى الظلام من منفعة ، فإن فيه تهدأ النفوس ، وتسكن الخواطر
وتستقر الجنوب فى مضاجعها ، تستريح من عناء العمل ، وتستعين بالنوم على إعادة

القوى ، وتختفى الناس من مطاردة اللصوص ، والله در المثني حيث يقول :
وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخبرُ أن المانوية تكذب

ثم قرر نفاة الأشياء التي أقسم بها قبلُ ، وكونها أهلا لأن تعظم فقال :
 (هل في ذلك قسم لذي حجر) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) العقل ،
 ويقولون : فلان ذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ، ضابطا لها ، مضيقا عليها .
 والمراد أن من كان ذالبا وعقل يفتن إلى أن في القسم بهذه الخلوقات المشتعلة
 على باهر الحكمة ، وعجيب الصنعة ، الدالة على وحدانية صانعها - مقنعا أيما مقنع ،
 وكفاية أعظم كفاية .

وجاء الكلام بصورة الاستفهام لئلا يكيد المقسم عليه وتقريره ، كما تقول لمن
 يحاجك في أمر ثم تقيم له الحججة الناصعة التي تثبت ما تدعى : هل فيما ذكرت لك
 كفاية ، ومرادك أي قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها ، فليست تستطيع جحد
 ما قلت بعد هذا .

وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله بعد : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » الآية ،
 ويقدر بنحو قوله إن ناصية المكذبين بيدي ، ولئن أمهاتهم فلن
 أهملهم ، ولأخذنهم أخذ الأمم قبلهم ، وقد ترك لتسترسل نفس القارئ في تأمل
 ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما ، فيتمكن المعنى لديه فضل تمكن .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
 مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ
 ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)
 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٣٢) .

شرح المفردات

عاد : جنيل من العرب البائدة يقولون إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن
 نوح عليه السلام ، ويلقب أيضا بإرم ، وذات العماد : أي سكان الخيام ، وكانت
 منازلهم بالزمال والأحقاف إلى حضرموت .

وتمود : قبيلة من العرب البائدة كذلك وهى من ولد كافر بن إرم بن سام ،
ومنازلهم بالخيبر بين الشام والحجاز ، جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه ، بالواد :
أى الوادى الذى كانوا يسكنون فيه ، وفرعون : هو حاكم مصر الذى كان فى عهد
موسى عليه السلام ، والأوتاد : المبانى العظيمة الثابتة ، والطغيان : تجاوز القدر
فى الظلم والعتوّ ، وصب : أى أفرغ وألقى ، وسوط عذاب : أى أنواعا من العقوبات
التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم . والمرصاد : هو المكان الذى يقوم فيه الرصد ،
والرصد من يرصد الأمور : أى يتربها ليقف على ما فيها من الخير والشر ، ويطلق
أيضا على الحارس الذى يحرس ما يخشى عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على مخالفة
أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله وتلجوا
فى طغيانهم فأوقع بهم شديد العذاب وأخذهم أخذ العزيز الجبار ، ليكون فى ذلك
زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه ، وتطمين
لقلوبهم بأن أعداءهم سيقون ما يستحقون من الجزاء .

الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها فى البلاد ؟) أى
ألم تعلم أيها الإنسان ، كيف أهلك ربك عادا الأولى الذين كانوا أشد الناس أجساما
وأطولهم قامة ، وأرفعهم مكانة ، والذين لم يخلق فى البلاد كلها مدينة كدينتهم .
(وتمود الذين جابوا الصخر بالواد) أى وتمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه
وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال فى آية أخرى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا فَارِهِينَ » .

وفي هذا دليل على ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير .

(وفرعون ذى الأوتاد) أى وفرعون ذى المباني العظيمة التى شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر فى قديم الأزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجل التعبير عما تركه المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكلها كلها العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدئ البناء عريضا وينتهى بأدق مما بدأ .

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف فقال :

(الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد) أى هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس ، واغتروا بعظيم قدرتهم ، فكانوا سببا فى إفساد البلاد .

ذلك أن من اغتر بنفسه ، وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها ، وأخذ ما ليس له ، ولم يعط الذى عليه - يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد فى البلاد ، فيختل نظام العمران ، ويقف دولا ب التعامل ، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته ، ولا شك أن أما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار ، ومن ذكر عاقبة أمرها فقال :

(فصبّ عليهم ربك سوط عذاب) أى فأنزل الله تعالى بهم ألوانا من البلاء ، وشديد العذاب .

وقد شبه سبحانه ما أرقعه بهم من صنوف العذاب ، وما صبّه عليهم من ضرور الهلاك - بالسوط ، من قيل أن السوط يضرب به فى العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأثم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه .

ثم ذكر العلة فى تعذيبه لهم فقال :

(إن ربك لبالمرصاد) أى إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده تغير

ولا قطمير ، ولا يهمل أمة تعدت في أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رُصد له .

وقد أجل الله في هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم ، فقال في سورة الحاقة : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » وقال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَبِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » .

والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم ، وفي ذكر بعضها على طريق الإشارة في بعض المواضع ، وبالتفصيل في بعض آخر - أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحججة على قدرته تعالى ، وتوحيده في ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ؛ ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطيب خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الإشارة - إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى - كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦).

شرح المفردات

ابتلاه : أى اختبره بيسط الرزق وإقتاره ، فأكرمته : أى صيره مكرماً يرفل في بحبوبة النعم ، قدر عليه رزقه : أى صيره فقيراً مقتراً عليه في الرزق ، تقول قدرت عليه الشئ : أى ضيقته عليه ، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه كما قال : « وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه لا يفوته من شأن عباده شئ ، وأنه يأخذ كل مذنب بذنبه - أردف ذلك ذكر شأن من شئون الإنسان ، وبين أنه لا يهتم إلا بأمر الدنيا وشهواتها ، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق ظن أنه قد اصطفاه ورفعته على من سواه وجتبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواه ويفعل ما يشتهي ، ولا يبالي أكان ما يصنع خيراً أم شراً ، فيطغى ويفسد في الأرض ، وإذا ضيق عليه الرزق (وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص أو لتظهر قوة صبره ، فإن الفقر لا يزيد ذوى العزائم إلا شكراً) يقول ربى قد أهاننى ، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه لم يكن له عناية بعمله ، فكيف يؤاخذ به بما يصدر منه من شر ، أو يكافئه على ما يصنع من خير ، فلا شكره يكافأ بإحسان ، ولا كفره يجازى بعقوبة ، فينطلق يكسب عيشه بأى وسيلة عنت له ، ولا تحجزه شريعة ، ولا يقف أمام قانون ، ويسلك سبيل الجبارين ، ويبخس الحقوق ، ويفسد نظم المجتمع ، ولا تزال أحوال الناس هكذا كما وصف الله ؛ فأرباب السلطان يظنون أنهم في أمن من عقاب ربهم ولا يذكرونه إلا بالأسنتهم ، ولا يعرف له سلطان على قلوبهم ، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم ، لا يباليون ماذا يفعلون ؟ .

الإيضاح

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن) أى إن الإنسان إذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق - زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة - إكرام من الله له ، وخيّل إليه الوهم أن الله لا يؤاخذ على ما يفعل ، فيطنى ويفسد فى الأرض .

(وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) أى وإن رأى أن رزقه لا يأتىه إلا بقدر ظن أن ذلك إهانة من الله له وإذلال لنفسه .

والإنسان فى الحالين مخطىء مرتكب أشنع وجوه الغفلة ، لأن إسباغ النعمة فى الدنيا على أحد لا يدل على أنه مستحق لذلك ، ولو دل على هذا لما رأيت عاصيا موسعا عليه فى الرزق ، ولا شاهدت كافرا ينعم بصنوف النعم .

واعلم من حكمة الله فى بسط الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض آخر - أن وجدان المال سبب للانغماس فى الشهوات ، وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وأن فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة .

انظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يدعو به ربه من قوله : « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » تدرك سر ذلك .

إلى أن من يتمتعهم الله بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم على عباده ورفعهم فوق سائر خلقه ، ثم لا يزال بهم شيطان الغواية حتى يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب ، ويسيروا فى طريق شهواتهم المهلكة إلى أبعد غاية ، لا يرجعون إلى ربهم ، ولا يدركون أن ما عنده خير وأبقى .

كَلَّا بَلْ لَأُنْكِرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ
 الْمُسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتَ أَكَلًا لَمَّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا
 جَمًّا (٢٠) .

شرح المفردات

ولا تحاضون : أى لا يأمر بعضكم بعضا ، والترات : الميراث ، لمّا : أى شديدا ،
 جمّا : أى كثيرا قال :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأنى عبدٍ لك لا أَلَمّا

المعنى الجملى

بعد أن بين خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو قُتر عليه — أردف ذلك زجرهم عما يرتكبون من المنكرات ، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يُعتمه الطغيان ، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان ، وكانوا على الحال التي يرتقى إليها الإنسان — لشعرت نفوسهم بما عسى يقع فيه اليتيم من بؤس ، فَعُنُوا بِأَكْرَامِهِ فَإِنَّ الَّذِي يَفْقِدُ أَبَاهُ مَعْرُوضٌ لِفَسَادِ طَبِيعَتِهِ إِذَا أَهْمَلَتْ تَرْبِيَتَهُ ، وَلَمْ يَهْتَمْ بِمَا فِيهِ الْعَنَاءُ بِهِ وَرَفَعَ مَنزِلَتَهُ ، وَلَوْ كَانُوا عَلَى مَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الصَّلَاحِ لَوَجَدُوا الشَّفَقَةَ تَحْرُكُ قُلُوبَهُمْ إِلَى التَّعَاوُنِ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يَقْتَاتُ بِهِ مَعَ الْعَجْزِ عَنْ تَحْصِيلِهِ ، إِلَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَالَ الَّذِي يَتْرَكُهُ مِنْ يَتَوَفَى مِنْهُمْ ، وَيَشْتَدُونَ فِي أَكْلِهِ حَتَّى يَجْرَمُوا صَاحِبِ الْحَقِّ حَقَّهُ ، وَيَزِدَادُ حَبِيحَهُمْ لِلْمَالِ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ .

وصفوة القول — إن شرهم في المال ، وقرّمهم إلى اللذات ، وانصرفهم إلى التمتع بها ، ثم قسوة قلوبهم إلى الأياالموا إلى ما تجر إليه الاستهانة بشئون اليتامى من فساد أخلاقهم ، وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم إلى معاشريهم ، فينتشر

الداء في جسم الأمة — دليل على أن ما يزعمون من اعتقادهم بآله يأمرهم وينهاهم ، وأن لهم ديناً يعظهم ، زعم باطل ، وإذا غشوا أنفسهم وادَّعَوْا أنهم يتذكرون الزواجر ، ويراعون الأوامر ، فذلك مقال تكذبه الفعال .

الإيضاح

(كلا) أى لم أبتل الإنسان بالفنى لكرامته عندى ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على ، فالكرامة والإهانة لا يدوران مع المال سعة وقلة ، فقد أوسع على الكافر لا لكرامته ، وأضيق على المؤمن لا لهوانه ، وإنما أكرم المرء بطاعته ، وأهينه بمعصيته ، وقد أوسع على المرء بالمال لأختبره أيشكر أم يكفر ؟ وأضيق عليه لأختبره أيصبر أم يضجر ؟

ثم انتقل وترقى من ذمهم بقبيح الأقوال إلى النعي عليهم بقبيح الأفعال فقال :

(بل لا تكرمون اليتيم) أى بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم تدل على تهالككم على المال ، فقد يكرمكم الله بالمال الكثير فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره والإحسان إليه ، وقد جاء في الحديث الحث على ذلك ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحب البيوت بيت فيه يتيم مُكْرَم » وورد أيضاً : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والى تلى الإبهام . قال مقاتل : أنزلت الآية في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أمية ابن خلف .

(ولا تحاضون على طعام المسكين) أى ولا يبحث بعضكم بعضاً على إطعامه وإصلاح شأنه ، وإذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضاً بطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون .

وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام ، فيقول ولم تطعموا

المسكين — ليبين أن أفراد الأمة متكافلون ، وأنه يجب أن يوصى بعضهم بعضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كلِّ بفعل ما يأمر به أو ينهى عنه . ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم ، وخلو قلبهم من الرحمة بالمسكين لم يكونا زهدا في لذائذ الحياة وتخلصا من متاعها ، وعكوبا على شئون أنفسهم ، بل جاء من محبتهم المال فقال :

(وَأَنْ تَكُونُوا لِلْمَالِ الَّتِي كَلَّامًا) أَي لَانِكُمْ تَأْكُونُوا الْمَالِ الَّتِي يَتْرَكُهُ مِنْ يَتِيمٍ مِنْكُمْ أَكَلًا شَدِيدًا ، فَتَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ ، وَتَجْمَعُونَ بَيْنَ نَصِيحَتِكُمْ مِنْهُ وَنَصِيحَةِ غَيْرِكُمْ . (وتحبون المال حبا جما) أَي وتميلون إلى جمع المال ميلا شديدا ، ميرانا كان أو غيره .

وإخلاصة ذلك — أتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة ، لانصرفتم عما يترك الموتى ميراثا لأيتامهم ، ولكنكم تشاركونهم فيه ، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه ، ولا مدخل لكم في تحصيله وجمعه ، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة لما صرّيت نفوسكم على المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، من حلال أو من حرام .

فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيت من صلاح وإصلاح ، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا

صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ

الذِّكْرَى ؟ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ

عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُؤْتِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٦)

شرح المفردات

الدكّ : حط المرتفع بالسط والتسوية ؛ ومنه اندكّ سنام البعير إذا انغرس في ظهره ، دكا دكا : أى دكا بعد دكا : أى كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة للمساء ، صفا صفا : أى صفا بعد صفا بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل ، وحيء يومئذ بجهنم : أى كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، وأنى له الذكرى ؟ أى ومن أين له فائدة التذكّر وقد فات الأوان ، والوثاق : الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم أقوالهم وادعاءهم أن الغنى إكرام لهم ، وأن الفقر إهانة لهم ، ونعى عليهم أفعالهم من حرصهم على الدنيا واستفراغ الجهد في تحصيلها ، وتكاليهم على جمعها من حلال وحرام - أردفه بيان أن ما يزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحب المال والميل إلى الشهوات - زعم لاجقيقة له ، وإنما يتذكرون ربهم في ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول ، ويُعَوِّزُهُمُ الحَوْلُ ، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال ، ولكن هذه الذكرى قد فات أوانها ، وانتهى إبانها ، فإن الدار دار جزاء لا دار أعمال ، فلا يبقى فيها لأولئك الخاسرين إلا الحسرة والندامة ، وقول قائلهم : « لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » ويكون لهم من العذاب ما لا يقدر قدره ، ومن الإهانة ما يجيل عن التشبيه والتمثيل .

الايضاح

(كلا) زجر لهم وإنكار لأقوالهم وأفعالهم ؛ أى لا ينبغي أن يكون هذا شأنهم في الحرص على الدنيا من حيث تهياً لهم سواء كانت من جلال أو حرام ، وكأنهم يتوهمون أن لاحساب ولا جزاء ، وسيأتى يوم يندمون فيه أشد الندم ،

ولكن لاتنفعهم الندامة ، ويتمنون لو كانوا أفنوا حياتهم في التقرب إلى ربهم
بصالح الأعمال .

ثم بين ذلك اليوم ووصفه بأوصاف ثلاثة فقال :

(١) (إذا دكت الأرض دكا دكاً) أى إذا دكت الأرض دكا بعد دك ،
وتتابع عليها ذلك حتى صارت كالصخرة للمساء ، وذهب كل ماعلى وجهها من جبال
وأبنية وقصور .

(٢) (وجاء ربك والملك صفا صفاً) أى وتجلت لأهل الموقف السطوة
الإلهية ، كما تتجلى أئمة الملوك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه وموآكبه ، والله
المثل الأعلى .

(٣) (وجيء يومئذ بجهنم) أى وكشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت
غائبة عنهم .

ونحو الآية قوله : « وَرُزِّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى » أى أظهرت حتى رآها
الخلق وعانيتها ، وليس المراد أنها نقلت من مكانها إلى مكان آخر .
(يومئذ يتذكر الإنسان) أى حينئذ تذهب الغفلة ، ويتذكر المرء ما كان
قد فرط فيه ، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالاً ، وأنه كان يجب أن يكون على
حال خير مما كان عليها .

ثم بين أن هذه الذكرى لافائدة منها فقال :

(وأتى له الذكرى) أى ومن أين لهذه الذكرى فائدة ، أو ترجع إليه بعائدة ؛
وقد فات الأوان ، وحتم القضاء .

والخلاصة — إنه إذا حدثت هذه الأحداث انكشفت عن الإنسان الحُجُب ،
ووضح له ما كان عليه ، وذهبت عنه الغفلة ، وإذا ذلك يتمنى أن يعود ليعمل صالحاً ،
ولكن أنى له ذلك ؟

ثم بين تذكره بقوله :

(يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) أى يتمنى أن يكون قد عمل صالحاً ينفعه
في حياته الآخروية التى هى الحياة الحقيقية .

ثم بين مآله وعاقبة أمره فقال :

(فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) أى فيومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذى يصيب ذلك الإنسان الذى أبطره الغنى فجحد نعمة الله عليه ، أو أفسده الفقر حتى عثا فى الأرض فسادا ، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقا مثل هذا الوثاق الذى يوثقه ذلك الإنسان .
ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ، ووجدان يشعر .

يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتِي (٣٠) .

شرح المفردات

المطمئنة : من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، إلى ربك : أى إلى ثوابه وموقف كرامته ، فى عبادى : أى فى زمرة عبادى المكرمين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الإنسان الذى خُلِّي وطبعه ، فاستولى عليه جشعه وحرصه على رغباته وشهواته ، حتى خرجت عن سلطان الحكمة والعقل ، ثم ذكر عاقبة أمره فى الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذى ارتقى عن ذلك الطبع وسمت نفسه إلى مراتب الكمال ، فاطمأن إلى معرفة خالقه ، واستعلى برغائبه إلى المطامح الروحية ، ورغب عن اللذات الجسمانية ، فكان فى الغنى شاكرا لا يتناول إلا حقه ، وفى الفقر صابرا لا يمد يده إلى ما نقيه ، وبين أنه فى ذلك اليوم يكون بجوار ربه راضيا بعمله فى الدنيا ، مرضيا عنده ، يدخله فى زمرة الصالحين المكرمين من عباده .

الإيضاح

(يأتيها النفس المطمئنة) أي يأتيها النفس التي قد استيقنت الحق ، فلا يخالجهما شك ، ووقفت عند حدود الشرع ، فلا تزغزعها الشهوات ، ولا تضطرب بها الرغبات .

(ارجعي إلى ربك راضية مرضية) أي ارجعي إلى محل الكرامة بجوار ربك ، راضية عما عملت في الدنيا ، مرضيا عنك ، إذ لم تكوني ساخطة لافي الفنى ولا في الفقر ، ولم تتجاوزي حدود الشرع فيما لك من حق وما عليك من واجب .
ثم ذكر جميل عاقبتها فقال :

(فادخلي في عبادي) أي فادخلي في زمرة عبادي المسكرمين ، وانتظمي في سلكهم ، وكوني في جملتهم ، فالنفوس القدسية كالمرايا المتعاقبة ، يشرق بعضها على بعض ، وكأنها ترتبي في هذه الدنيا بالآلام وتزين بالمعارف والعلوم ، حتى إذا فارقت الأبدان جعلت في أماكن متقاربة ، بينها صفاء ومودة ، وحسن صلة ومحبة .
(وادخلي جنتي) فتمتعى فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللهم اجعلنا من النفوس المطمئنة ، الراضية المرضية ، وأدخلنا في جنتك مع المتقين ، من الأنبياء والشهداء والصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على مقاصد ستة :

(١) القسم على أن عذاب الكافرين لا محيص منه .

(٢) ضرب المثل بالأمم البائدة كعاد ونمود .

(٣) كثرة النعم على عبد ليست دليلاً على إكرام الله له ، ولا البلاء دليلاً على إهانته وخذلانه .

(٤) وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال .

(٥) تمتى الأشقياء العودة إلى الدنيا .

(٦) كرامة النفوس الراضية المرضية ، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها .

سورة البلد

هي مكية ، وآياتها عشرون ، نزلت بعد سورة ق .
ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذم في الأولى من أحب المال وأكل الثراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام في يوم المسغبة .

(٢) ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)

شرح المفردات

البلد: مكة ، حلّ: أي حالّ مقيم فيه ، ووالد وما ولد: أي وأيُّ والد وأيُّ مولود من الإنسان والحيوان والنبات ، والكبد: المشقة والتعب ، قال لبيد يرثي أخاه أربد:
يا عين هل رأيت أربد إذ قُمنا وقام الخصوم في كبد

الإيضاح

(لا أقسم بهذا البلد) تقدم أن قلنا إن مثل هذا التعبير قسم مؤكد في كلام العرب ، وقد أقسم ربنا بمكة التي شرفها فجعلها حرماً آمناً ، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للناس يرجعون إليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها في الصلوات التي تكرر كل يوم فقال : « وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

(وأنت حل بهذا البلد) أي وأنت مقيم بهذا البلد حال فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم مقياً فيه ، ولا شك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها ، والنازلين بها .

وأتى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر في كل حال حتى في الحال التي لم يراع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التي خصها الله بها .

وفي هذا إيقاظ وتنبية لهم من غفلتهم ، وتقريع على حط منزلة بلدهم .

(ووالد وما ولد) أي وكل والد وكل مولود من الإنسان وغيره .

وفي القسم بهذا لفت لأنظارنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانیه كل من الوالد والمولود في إبداء النشء ، وتبليغ الناشئ وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

انظر إلى البذرة في أطوار نموها ، كم تعاني من اختلاف الأجواء ، ومحاولات امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد لأن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها .

وأمر الإنسان والحيوان في ذلك أعجب وأعظم ، والتمب والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ نوعه ، واستبقاء جمال الكون بوجوده أشد وأكبر .

ثم ذكر الحلو ف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد ، مبتدئة بالمشقة ، منتهية بها ؛ فهو لا يزال يقاسى من ضرورها ما يقاسى منذ نشأته فى بطن أمه إلى أن يصير رجلا ، وكلما كبر ازدادت أتعابه وآلامه ، فهو يحتاج إلى تحصيل أرزاقه وتربية أولاده ، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ، ومصابرة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود ، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ، ويلاقى فى قبره وفى آخرته من المشاق والتعاب ، ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه .

والسرفى التنبيه إلى أن الإنسان قد خلق فى عناء — الرغبة فى تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحضه على عمل الخير والمثابرة عليه ، والألعب بما يلاقه من الشدائد والمشاق ، وأن ذلك لا يخلو منه إنسان .

إلى ما فيه من تنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة فى أنفسهم ، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران ؛ وكأنه يقول لهم : لاتمادوا فى غروركم ، ولا تستمروا على صلفكم وكبريائكم ، فإن الإنسان لا يخلو من العناء فى تصريف شؤنه وشئون ذويه ، ومهما عظمت منزلته ، وقويت شكيمته ؛ فهو لا يستطيع الخلاص من مشاق الحياة .

وقد جمع سبحانه بين البلد الممظم والوالد والولد ، ليشير إلى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيماً يكون إكليلاً لمجد النوع الإنسانى وشرفه ، وهو دين الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وأن العناء الذى يلاقه إنما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية فى سبيل نموه ؛ إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ (٥) يَقُولُ أَهْلَكَتُ مَا لَأُ
 لُبْدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا
 وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

شرح المفردات

أَيَحْسَبُ : أى أظن ، أهلكت : أى أنفقت ، لبدأ : أى كثيرا ، والنجد :
 الطريق المرتفعة ؛ والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينبغي للمفتونين بقوة أبدانهم ، المغرورين بواسع جاههم ،
 أن يتبادوا فى صلفهم وكبرياتهم — شرع يوجههم على الاغترار بقوتهم الزائلة ؛
 ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية .

روى أن قوله : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ » نزل فى أبى الأشد
 أسيد بن كلدة الجمحى ، وكان مغترا بقوته البدنية ؛ وأن قوله : « يَقُولُ أَهْلَكَتُ
 مَا لَأُ لُبْدًا » نزل فى الحرث بن نوفل وكان يقول : أهلكت ما لا لبدأ فى الكفارات
 منذ أطعت محمدا .

وسواء أكانت هذه الآيات نزلت فى هؤلاء أم فى غيرهم فإن معناها عام
 كما علمت .

الإيضاح

(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟) أى أظن ذلك للغتر بقوته ، المفتون بما
 أنعمنا به عليه — أنه مهما عظمت حاله ، وقوى سلطانه ، يبلغ منزلة لا يقدر عليه فيها .

أحد؟ ما أجهله إذا ظن ذلك ، فان في الوجود قوة فوق جميع القوى هي المهيمنة على كل قوة ، والمسيطر على كل قدرة ، وهي القوة التي أبدعته ، والقدرة التي أنشأته .

ثم ذكر صنفا آخر من الأغنياء البخلاء المرائين فقال :

(يقول أهلكت مالا لبدأ) أى إنهم إذا طلب إليهم أن يعملوا عملا من أعمال البر قالوا : إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمه ماعده الله مكرمه ، والبر ما اعتبره الله برا ، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقه الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال في الصدّه عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

(أى حسب أن لم يره أحد) أى أيظن ذلك المغتر بماله ، المدعى أنه أنفقه في سبيل الخير — أن الله لم يطلع على أفعاله ؛ ولم يعلم مادعاه إلى الإنفاق ؟ إنه لا ينبغي له أن يظن ذلك ، فإن البارى له مطلع على قرارة نفسه ، عالم بحديثات قلبه ، لا يعزب عنه شىء في الأرض ولا في السماء ، عليم بأنه لم ينفق شيئا من ماله في سبيل الخير المشروع والبر الحمود ، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة ، أو لمشاقه الله ورسوله ، أو في وجوه أخرى يظنها خيرا وهي خسران وضلال مبين .

وبعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم — شرع يذكر آثار قدرته الغالبة ، ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ما هم يشاهدون فقال :

(ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر شيئا فأنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين ، فهذه النعمة التي يعترف بها إنما هي من عملنا .

(ولسانا وشفقتين) فإذا أبان عما في نفسه ، فأنما يبين بما وهبنا له من لدنا من تلك الجارحة التي يتكلم بها ، فإذا غرّه حديثه ، أو قوة حجته ، فليس فضل ذلك راجعا إليه ، وإنما الفضل لمن وهبه ذلك .

(وهديناه النجدين) أى وأودعنا فى فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنها ، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير ؛ وأرشدناه إلى مافى الشر من هنوات وعيوب ، ثم أقدرناه على أن يسلك أى الطريقين شاء ، بعد أن آتيناها قوة التمييز ، والقدرة على الاختيار والترجيح ، ليسلك الطريق التى أراد منهما .

فليكن نجدُ الخير أحبَّ إلى أحدكم من نجد الشر ؛ فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر فى آيات الله ، والتدبر فى دلائله ، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوى بصاحبه إلى طريق الردى ، ويوقعه فى المهالك .

وإنما سماها الله نجدين ، للإشارة إلى أنهما امتحان كطريقتين عاليتين يراها ذوو الأبصار ، وإلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها .

وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير ، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية ، وتوصل إلى الغاية .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَّ رَقَبَةَ (١٣)
 أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا
 ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا
 بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
 هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

شرح المفردات

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة ، والمقبة : الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها ؛ والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه ، والمسغبة : الجوع ، يقال سغب الرجل يسغب إذا جاع ، والمقربة : القرابة في النسب ، تقول فلان من ذوى قرابتي ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسبا ، والمقربة : الفقر ؛ تقول ترب الرجل إذا افتقر ، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب ، توأصوا بالصبر : أي نصح بعضهم بعضا به ، والميمنة : طريق النجاة والسعادة ، والمشامة : طريق الشقاء ، مؤصدة : أي مطبقة عليهم من أصدت الباب ، أي أغلقتة ، قال :

نحن إلى أجيال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

المعنى الجملي

بعد أن ونح سبحانه هؤلاء المرانين الذين يتفقون أمواهم طلبا للشهرة ، وحبما في حسن الأحدثنة ، وأتبههم على افتخارهم بما صنعوا مع خلوت بواطنهم من حسن النية ، وبين لهم أن أفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والمقل المميز بين الخير والشر ، والنفع والضر هو منه سبحانه ، وهو القادر على سلبه منهم — أردفه بيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم ، ويختاروا طريق الخير ، ويرجعوا سبيل السعادة ، فيفيضوا على الناس بشيء مما أفاض به عليهم ؛ وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر ، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين الموت وعزة الطعام ، أو يطعموا المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أودهم لضيقهم وعجزهم ؛ ثم هم مع ذلك يكونون صحيحى الإيمان ، صبورين على أذى الناس ، وعلى ما يصيبهم من المكارة في سبيل الدعوة إلى الحق ، رحاء بعباده ، مواسين لهم حين الشدائد .

هذه هي الطريق التي كان من حق العقل أن يرشد إليها ؛ لكن الإنسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة ، ولم يسلك هذه السبيل القويمة ، ولم يسر فيما يرشد إليه العقل السليم .

الإيضاح

(فلا اقتحم العقبة) أى فهلا جاهد النفس والشيطان وعمل أعمال البر ؛ وقد ضرب الله العقبة مثلاً لهذا الجهاد ، لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح ، وبينه وبين ذلك عقبات من ورأها عقبات ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هي فعل الخيرات .

ثم نخم شأن العقبة وعظم أمرها فقال :

(وما أدراك ما العقبة) أى وأى شئ أعلمك ما اقتحام العقبة ؟

ثم أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير منها :

(١) (فك رقبة) أى عتق الرقبة أو الإعانة عليها ؛ وقد ورد في الكتاب

الكريم والسنة الترغيب في العتق والحث عليه .

روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : عتق النسمة وفك

الرقبة ، قال يا رسول الله أوليس واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعنتها ، وفك

الرقبة أن تعين في ثمنها » .

والكلام بتقدير مضاف : أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ، فك رقبة ، لأن

فك الرقبة ليس هو العقبة نفسها ، وإنما هو اقتحامها لأنه سبب موصل إلى مجاوزة

العقبة والوصول إلى عالم الأنوار .

(٢) (أو إطعام في يوم ذى مسغبة . يتيما ذامقربة) أى أو إطعام يتيم من أفاربه

في أيام الجوع والعوز .

وفي هذا جمع بين حقين : حق اليتيم وحق القرابة .
 (٣) (أو مسكيناً ذا متربة) أى أو إطعام المسكين الذى لا وسيلة له إلى كسب
 المال لضعفه وعجزه .

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أى ثم كان مع
 اقتحامه العقبة من صادقى الإيمان الذين يصبرون على الأذى وما يصيبهم من المكاره
 فى سبيل الدفاع عن الحق ، ويرحون عباد الله ويواسونهم ويساعدونهم
 حين البأساء .

وإنما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبررات ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً
 لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر برّ .
 ثم بين ما لفاعل هذه المبررات فقال :

(أولئك هم أصحاب اليمين) أى أولئك الذين اقتحموا العقبة فكفوا الرقاب ،
 وأطعموا المساكين ، وواسوا ذوى القربى فى يوم المسغبة هم السعداء الممتعون بجنات
 النعيم ، وهم الذين عناهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ
 مَحْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ .
 لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » .

ثم ذكر مقابل هؤلاء وهم الذين صدوا عن سبيل الله ، وتواصوا بالإثم وتواصوا
 بالعدوان ومعصية الرسول فقال :

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) أى والذين جحدوا آياتنا الكونية
 وآياتنا السمعية التى جاءت على السنة الرسل كالتقرآن وغيره من الكتب السماوية
 هم أصحاب المشأمة ، أى أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ
 مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لِأَبَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُضِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ
أُنْذِرْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنفَا لِمَبْعُوثُونَ . أَوْ آبَاءُنَا الْأَوْلُونَ .

(عليهم نار مؤصدة) أى عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكك منها
ولا الخلاص من عذابها . نجانا الله منها بمنه وكرمه ، وجعلنا من أصحاب اليمينه .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على خمسة مقاصد :

- (١) ما ابتلى به الإنسان فى الدنيا من النصب والتعب .
- (٢) اغترار الإنسان بقوته .
- (٣) نكران النعم التى أنعم الله بها عليه من العينين واللسان والعقل والفكر .
- (٤) سبل النجاة الموصلة إلى السعادة .
- (٥) كفران الآيات سبيل الشقاء .

سورة الشمس

هى مكية ، وآياتها خمس عشرة ، نزلت بعد سورة القدر .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب اليمين وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(٢) ختم السورة السابقة بشىء من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشىء من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣)
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦)
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) .

شرح المفردات

ضحى الشمس : ضوءها ، تلاها : أى تبعها ؛ يقال تلا فلان فلاناً يتلوه إذا تبعه ، وجلالها : أى كشف الشمس وأتم وضوحها ، يغشاه : أى يزيل ضوءها ويحجبه ، والسما : كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها ، بناها : أى رفعها ، وجمل كل

كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة تحيط بك، وطحا الأرض: بسطها وجعلها فراشا، سوّاها: أى ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها، أهمها: عرفتُها ومكّنها، والنجور: ما يكون سببا فى الخسران والهلكة، والتقوى: إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة، أفليح: أى أصاب الفلاح؛ وهو إزداك المطوب، وزكّاها: أى طهرها من أدناس الذنوب، وخب: أى خسر، ودسّاها: أى أقمصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي قال: ودسستُ عمرا فى التراب فأصبحت حلالته منه أراملا ضيعا

الإيضاح

(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بالشمس نفسها غابت أو ظهرت، لأنها خلق عظيم يدل على قدرة مبدعها، وأقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة فى كل حي، فلولاها ما أبصرت حيا ولا رأيت ناميا، ولولاها ما وجد الضياء ولا انتشر النور، وإذا أرسلت خيوطها الذهبية على مكان فرّ منه السقم، وولت جيوش الأمراض هاربة، لأنها تفتك بها فتكاً ذريعا.

(والقمر إذا تالاها) أى والقمر إذا تلا الشمس فى الليالى البيض من الليالى الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضىء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر.

وهذا قسم بالضوء فى طور آخر، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله.

وقد يكون المراد — بتالاها أى تبعها فى كل وقت، لأن نوره مستمد من نور الشمس فهو لذلك يتبعها، وقد قال بهذا الفراء قديما وأثبتته علماء الفلك حديثا.

(والنهار إذا جلاها) أى والنهار إذا جلى الشمس وأظهرها وأتم وضوحها، إذ كلما كان النهار أجلى ظهورا كانت الشمس أكل وضوحا.

وأقسم بهذه الخلوقات ، للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء وإعظام أمر النعمة فيه ، وفيه لفت لأذهاننا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ، ونعمة من نعمه العظمى . وفي قوله . جلاها بيان للحال التي يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة ، والآية الباهرة .

وبعد أن أقسم بالضياء في أطوار مختلفة أقسم بالليل في حال واحدة فقال :
(والليل إذا يغشاها) أى والليل إذا يغشى الشمس فيزيل ضوءها في الليلي الخالصة التي لا أثر لضوء الشمس فيها ، لامباشرة كما في النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها ، وهي قليلة فإيها ليلة أو ليلتان أو بعض ليلال في الشهر . وفي هذا إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم فيذهب ضوءه ، ويحيل نور العالم ظلاما فهو على جليل نفعه وعظيم فائدته ، لا يتخذ إلها لأن الإله لا يحول ولا يزول ، ولا يعتره تغير ولا أفول .

وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته .
وبعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام — أردفه ذكر صفات تدل على حدوثها فقال :
(والسما وما بناها) أى والسما ومن قدرها على النحو الذى اقتضته مشيئته وحكمته .

وفي ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة ، وأن لها صانعا حكما قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها ، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتناسك . ولما كان الخطاب موجها إلى قوم لا يعرفون الله بمجليل صفاته ، وكان القصد منه أن ينظروا في هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثرا ، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى — عبر عن نفسه بلفظ (ما) التي هي الغاية في الإبهام .

(والأرض وما طحاها) أى والأرض والذى بسطها ومهدها للسكنى ، وجعل
الناس ينتعمون بما على ظهرها من نبات وحيوان ، وبما فى باطنها من مختلف المعادن .
ونحو الآية قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » .

وقصارى ماسلف — إنه بعد أن أقسم سبحانه بالضياء والظلمة ، أقسم بالسماء
وما فيها من الكواكب وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء ، وبالأرض والذى
جعلها لنا فراشا ومصدرا للظلمة ، فإنها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس
عن بعضها الآخر فيظهر فيه الظلام .

ثم أقسم بعد هذا بالنفس الإنسانية لما لها من شرف فى هذا الوجود فقال :
(ونفس وما سواها) أى قسما بالنفس ومن سواها وركب فيها قواها الباطنة
والظاهرة ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من
أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى .

ثم بين أثر هذه التسوية فقال :
(فألهما فجورها وتقواها) أى فألهما كل نفس الفجور والتقوى وعرفها حالها ،
بحيث تميز الرشد من الغي ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، وجعل ذلك معروفا
لأولى البصائر .

وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر ذكر ما تلقاه جزاء على كل
منهما فقال :

(قد أفلح من زكاها) أى قدرجح وفاز من زكى نفسه ونمّاها حتى بلغت
غاية ما هى مستعدة له من السكّال العقلى والعملى ، حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها
ولن حولها .

(وقد خاب من دساها) أى وخسر نفسه وأوقعها فى التهلكة من نقصها حقها
بفعل المعاصى ومجانبة البر والقربات ، فإن من سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى

الشهوة فقد فعل ما تفعل بهائم ، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التي اختص بها الإنسان ، واندرج في عداد الحيوان .

ولا شك أنه لاخيبة أعظم ، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله .

والخوف عليه الذي افتتحت به السورة - محذوف للعلم به من نظائره ، وكأنه قيل : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ... » لينزلنّ بالكاذبين منكم مثل ما نزل بشمود إذ كذبت نبيها فأصابها العذاب ، ودليل ذلك قوله بعد : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » الآيات ، فإنها ترشد إلى أن الله يعاقب من يكذب رسله ، نحو ما سبق في سورة البروج .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

شرح المفردات

الطغوى والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، انبعث : أى قام بعقر الناقة ، أشقاها : أى أشقى ثمود وهو قدار بن سالف ، رسول الله : هو صالح عليه السلام ، ناقة الله : أى احذروا التعرض لناقة الله ، وسقياها : أى شربها الذى اختصها به فى يومها ، فعقروها : أى فنعروها ، فدمدم : أى فأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدم عليه القير : أى أظفقه عليه ، فسواها : أى فسوى القبيلة فى العقوبة فلم يفلت منها أحد ، عقباها : أى عاقبة الذممة وتبعها .

المعنى الجملى

جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسالهم وما قابلوهم به من التكذيب والإيذاء ، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذبين ، وأخذهم بظلمهم وبما عملوا مع أنبيائهم ، ليكون في ذلك سلوة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء ، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا ، ويكون في ذلك تخويف لأولئك المكذبين الذين يعاندون رسول الله ويلحقون في تكذيبه ، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة وتالوا من الجزاء مثل ما تالوا .

الايضاح

(كذبت ثمود بطغواها) أى كذبت ثمود نبيها صالحا بسبب طغيانها وبغيها .
ثم بين أمانة ذلك التكذيب فقال :
(إذ انبعث أشقاها) أى كان انطلاقي الأشتى لعمر الناقة والقوم راضون عنه علامة ظاهرة على تكذيبهم لنبيهم الذى جعلها دليل نبوته ، وبرهاننا على صدق رسالته ، وأوعدهم إذا هم تعرضوا لها ، وسكوت قومه على ما يفعل دليل رضاهم عن فعله ، فكانوا مكذبين مثله .
ثم ذكر ما توعدهم به الرسول على فعلهم فقال :

(فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها) أى فقال لهم صالح : أخذروا ناقة الله التى جعلها آية نبوتى ، وأخذروا شربها الذى اختصت به فى يومها ، فلا تؤذوها ولا تتعدوا عليها فى شربها ولا فى يوم شربها ، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم ، ولهم ولمواشيهم شرب يوم ، فكانوا يجردون فى أنفسهم حرجا لذلك ويتضررون منه ، فهموا بقتلها فحذروهم أن يفعلوا ذلك ،

وخوفهم عذاب الله وعقابه الذى ينزلهم إن هم أقدموا على هذا الفعل ، ولربكم
 كذبه ولم يستمعوا النصحه كما أشار إلى ذلك بقوله : **فَلَمَّا كَذَبُوا** ،
 (فكذبوه فمقروها) أى إنهم لم يتورعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عقن
 الناقة ، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .
 وقد تقدم أن قلنا : إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا ، وكانهم
 صنعوه معاً .

ثم بين عاقبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :
 (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) أى فأطبق عليهم العذاب ، وأهلكهم هلاك
 استئصال ولم يبق منهم دياراً ولا نافع نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
 (فسواها) أى فسوى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد ، بل أخذ بها
 كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأشاهم : **« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى**
وَهِيَ ظَالِمَةٌ » .

وقد يكون المعنى — جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثر ، ودمر مساكنها
 على ساكنيها .

(ولا يخاف عقباها) أى إن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم ، لأنه
 لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه ، تعالى عن ذلك
 علواً كبيراً .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة
 لا يبالغ فى الفعل ، أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعه العمل فإنه يبالغ فيه ليصل
 إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسليية رسوله بأنه سيمزل بالمكذبين به مثل
 ما أنزل بشمود ، ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة

بدر بأيدي المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الخزي والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها في عهد الصحابة لما بقي في الأرض مكذب ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

مقاصد هذه السورة

اشتمت هذه السورة على مقصدين :

- (١) الإقسام بالخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالته وفسنوقه فقد خاب .
- (٢) ذكر ثمود مثلاً لمن دسى نفسه فاستحق عقاب الله الذي هو له أهل .

سورة الليل

هى مكية ، وآياتها إحدى وعشرون ، نزلت بعد سورة الأعلى .
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم ، وخيبة المدسئين لها .
وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح وما تحصل فيه الخيبة ، فهى كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

شرح المفردات

يغشى : أى يغطى كل شئ فيواريه بظلامه ، تجلى : أى ظهر وانكشف بظهوره
كل شئ ، وما خلق : أى والذى خلق ، وشتى : واحدا شتيت ، وهو المتباعد بعضه
من بعض .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما أقسم بأن سعى البشر مختلف ، فأقسم :
(١) بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مستقره ، ويسكن عن الاضطراب
إذ يغشاه النوم الذى فيه راحة لبدنه وجسمه .
(٢) بالنهار الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وفيه تغذو الطير من أوكارها
وتخرج الهوام من أجحارها .
(٣) بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى ويميز بين الجنسين مع أن المادة

التي تكوننا منها واحدة ، والحل الذي تكوننا فيه واحد ، وفي ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة كما قال : « يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا نَا وَبِهِبُ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ . أَوْ يَرْوِجُهُمُ ذُكْرَانًا وَإِنَّا نَا وَبِجَعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » .

الإيضاح

(والليل إذا يغشى) أى قسما بالليل حين يغشى الأشياء ويوارىها فى ظلامه ، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم ، بما يشملهم من النوم والهدوء .

(والنهار إذا تجلّى) بزوال ظلمة الليل ، فيتحرك الإنسان والحيوان ، طلبا لمعائشهما ، وبهذا يظهر وجه المصلحة فى اختلافهما ، إذ لو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهارا لبطلت المصلحة ، فكان فى تعاقبهما آية بالغة يستدل بها على علم الصانع وحكمته ، اقرأ إن شئت قوله : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَدَّكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » .

(وما خلق الذكر والأنثى) أى قسما بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى من ماء واحد .

وفى هذا دليل على أنه عليم جد العلم بدقائق المادة وما فيها ، إذ لا يعقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعورها ، بما تفعل ، فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة فيهما ، فحدث هذا التخالف فى الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يصنع ويضع .

وقصارى ما سلف — إن بعض الماء يكون تارة سببا للحمل ، وأخرى يكون غير مستعد للتلقيح ، والأول يكون من بعضه الذكران ، ومن بعضه الإناث . سبحانه ما أعظم قدرته ، وأجل حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد .

ثم ذكر الحلو ف عليه فقال :

(إن سعيكم لشتى) أى إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة ، بعضها ضلال وعباية ، وبعضها هدى ونور ، وبعضها يستحق النعيم ، وبعضها يستحق العذاب الأليم كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْيَاهُمْ وَمَنَّا لَهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقال : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) .

شرح المفردات

أعطى : أى بذل ماله ، واتقى : أى ابتعد عن الشر وإيصال الأذى إلى الناس ،
بالحسنى : أى بالخصلة الحسنى التى هى أفضل من غيرها ، لليسرى : أى للخصلة التى
تؤدى إلى يسر وراحة بتمتعته بالنعيم ، استغنى أى عد نفسه غنيا عما عند الناس بما
لديه من مال ، فلا يجد فى قلبه راحة اضعفأهم ببذل المال والمعونة لهم ، بالحسنى :
أى بالفضيلة وبأنها زكن من أركان الاجتماع ، للعسرى : أى الخصلة التى تؤديه إلى
العسر ، ويقال تردى فلان من الجبل إذا هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله .

المعنى الجملى

بعد أن أشار إلى اختلاف أعمال الناس فى أنواعها وصفاتها ، والجزاء الذى يعود
على فاعلها - أخذ يفصل هذا الاختلاف ، ويبين عاقبة كل عمل منها .

الإيضاح

(فأما من أعطى واتقى) أى فأما من أعطى المال وأنفقه فى وجوه الخير ، سواء كان واجبا عليه أم لا كالأصدقات والنوافل كفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم ، وابتعد عن كل ما لا ينبغى ، فحى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس .

(وصدق بالحسنى) أى وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، ونحو ذلك مما هو مركز فى طبيعة الإنسان ، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير . ولا يكون تصديقا حقا ، ولا ينظر الله إليه إلا إذا صدر عنه الأثر الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال ، واتباع مفاصد الأعمال .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر ؛ ولكن هذا التصديق يكون سرايا فى النفس ، خياله الوهم ، لأنه لا يصدر عنه ما يلىق به من الأثر ، فتراه قاسى القلب ، بعيدا عن الحق ، بخيلا فى الخير ، مسرفا فى الشر .

ثم ذكر جزاءه على ذلك فقال :

(فستيسره لليسرى) أى فسنبهته لأيسر الخطتين وأسبهاهما فى أصل الفطرة ، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها ؛ فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير فى الأعمال ووزنها بنتائجها .

فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها سهل الله له ما هو مسوق إليه بأصل فطرته . وفاعل الخير للخير يجد أريحية فى نفسه ، ويذوق لذة لاتعد لها لذة ، فتزيد فيه رغبته ، وتشد لفعله عزيمته ؛ وهذا هو التيسير الإلهى الذى يوفى الله له الصالحين من عباده .

(وأما من بخل واستغنى) أى وأما من أمسك ماله أو أنفقه فى شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه ، وخدعته ثروته وجاهه ، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد ولا يحس

بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من سوء
 (وكذب بالحسنى) أى وكذب بأن الله يخلف على المنفقين فى سبيله ، فبخل
 بماله ولم ينفق إلا فيما يلدله ويمتعه فى حاضره ولا يبالى بما عدا ذلك
 ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ،
 ولا يظهر أثرها فى أعمالهم .

(فسيبسه للعسرى) أى ومن مرتت نفسه على الشر وتعودت الخبث ، فسهل
 الله له الخطة العسرى ، وهى الخطة التى يحط بها قدر نفسه ، وينزل بها إلى حضيض
 الآثام ويقمسها فى أحوال الخطيئة .

(وما يقنى عنه ماله إذا تردى) أى وإذا يسرناه للعسرى فأى شىء يقنى عنه
 ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة ،
 ولم يصحب منه شيئا إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره كما قال : « وَقَدْ
 حَتَمْتُمُنَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُمْ كُمْ
 نَارًا تَلْقَى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)
 وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمِمَّا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَالسَّوْفِ
 يَرْضَى (٢١) .

شرح المفردات

تلظى : أصله تملظى ، أى تتوقد وتتمهب ، يقال : تلظت النار تلظيا بمعنى
 التهمت التهابا ومنه سميت النار لظى ، يصلها : أى يحترق بها ، كذب : أى كذب
 (١٢)

الرسول فيما جاء به عن ربه ، وتولى : أى أعرض عن طاعة ربه ، وسيجزيها : أى
يبعد عنها ويصير منها على جانب ، والأنتى : المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد
التحرز منهما ، يتزكى : أى يتطهر ، تجزى : أى تجازى وتكافأ ، ابتغاء وجه ربه :
أى طلب مثوبته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن سعى الخلائق مختلف فى نفسه وعاقبته ، وأرشد إلى أن الحسن
فى عمله يوفقه الله إلى أعمال البر ، وأن اللسوء فيه يسهل له الخذلان — أردفه أنه
قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه أعمال الخير والشر جميعا ، ووضح
السيبل أمام كل سالك ، فإن شاء سلك سيبل الخير فسلم وسعد ، وإن أراد ذهب
فى طريق الشر فتردى فى الهاوية .

روى أن الآيات نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه . وقد كان من أمره أن بلال
ابن رباح عليه الرضوان ، وكان مولى لعبد الله بن جُدعان — جاء إلى الأصنام وسمح
عليها ، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها
لآلهتهم فجعلوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرضاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أَحَدٌ أَحَدٌ
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يعذب فيقول له : ينجيك أحد أحد ،
ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر رضى الله عنه بما يلقى بلال فى الله ،
فعمل أبو بكر رطلا من ذهب وابتاعه من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون :
ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله :
« وَسَيَجْزِيهَا الْأَنْتَى » الآيات .

الإيضاح

(إن علينا للهدى) أى إنا خلقنا الإنسان وأهملناه التمييز بين الحق والباطل ،
وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له الحكمة من أفراده ، وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام ،

وأينما لهم العقائد تعلماً وإرشاداً ، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والفلاح ، والسبيل المموج فيتردى في الهاوية .

وقصارى ذلك — إن الإنسان خلق نوعاً ممتازاً عن سائر الحيوان بما أوتيته من العقل ، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد .
ثم زاد الأمر توكيداً فأبان عظيم قدرته فقال :

(وإن لنا الآخرة والأولى) أى وإنا لنحن المالكون لكل مافى الدنيا وكل مافى الآخرة ، فهب ما نشاء لمن تريد ، ولا يضيرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذى بيناه لهم ، ولا يزيد فى ملكنا اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وإذا كان ملك الحيأتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما ، لأن المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيها .

ثم بين سبيل الهداية الذى أوجبه على نفسه فقال :
(فأندرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى) أى لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى ، فأندرتنا كم نارا تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن وجهة الحق ولم يعد إليها تائباً نادماً .

(وسيجنبها الأتقى) أى وسينبذ عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصي ، الشديد التحرز منهما بحيث لا يخطرهما له ببال .

ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه فقال :

(الذى يؤتى ماله بتركي) أى إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالباً بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه ، لا مريداً بذلك رياء ولا سمعة ولا طالباً بمدح الناس له ، فإن ذلك ضرب من النفاق الذى يعطل معه العمل ، ولا يكون

لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهد لها ، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه .

وقد أكد هذا بقوله :

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى) أى إنه لا يقصد بإفناقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه .

ثم أكد مرة ثانية فقال :

(إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أى لكنه يفعل ذلك قاصدا رضا ربه طالبا مشورته وحده ، تقول : فعلت كذا أبتغى وجه فلان ، أى لم يحملنى على الفعل إلا إجلاله وقصد مرضاته ، وخيفة الوقوع فيما يقضيه .

ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه فقال :

(ولسوف يرضى) أى ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بثوابه وعظيم جزائه .
وفى قوله : (ولسوف) إيماء إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الإلهى .
وقصارى ماسلف : إن الناس أصناف :

(١) الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما يجعلهم يتعدون عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

(٢) الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيعمون فى الذنب ، ثم يشوب إليهم رشدهم فيتوبون ويندمون ، وهذان القسمان يدخلان فى (الأتقى) .

(٣) من يخلط بين الخير والشر فيعتقد وحدانية الله ويقترف بعض السيئات ، ويصر عليها ولا يتوب منها ، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد .

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن

ذهن المخالف وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتغلب عليها .

(٤) الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أنزل عليهم ، وهذان القسمان يشملهما (الأشقي) وقد أعدت النار لكل منهما ، إلا أن الفاسقين لا يدخلون فيها ، ويدخلها الكافرون وهم فيها خالدون .

اللهم أبعدنا عن هذه النار التي تتلظى ، وأدخلنا فسيح جناتك .

مقاصد هذه السورة

(١) بيان أن الناس في الدنيا فريقان :

(١) فريق يهيمه الله للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على من أنفقوا .

(٢) فريق يهيمه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

(ب) الجزاء في الآخرة لكل منهما وجملة إما جنة ونعيم ، وإما ناراً وعذاباً أليماً .

سورة الضحى

هي مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة الفجر .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السابقة « وَسَيَجْجِبُهَا الْأَتَقَى » ولما كان سيد
الْآتَقِينَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُمْطِئِكَ رَبُّكَ قَتْرَضَى (٥)

شرح المفردات

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ،
وسجى : أى سكن ؛ والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك
ربك : أى ما تركك ، وما قلى : أى وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة
النكرة والبغض .

المعنى الجملى

أجمع الرواة على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فترة في نزول الوحي على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حزن لذلك حزناً شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال
ليتردى من شواهدهما ، وأنه ما كان يمنعه إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه
رسول الله حقاً .

وإنما حزن لهذه الفترة خيفة أن يكون ذلك من غضب أوقلى من ربه له ،
بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به ، وشاهد من جمال الأنس بالوحي ما يثير لواعج

شوقه إلى التزود منه ، وقد كان يعلم أنه بشر ، لا فضل له على غيره إلا بهذا القرب
الذى يعلو به على من غداه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على تكميل
نفسه وإعدادها لتحمل ما هي بسبيله من أعباء الرسالة .

لاجرم يكون حزنه لهذه الفترة شديدا ، وأن يتوجس منه خيفة ، ولا يحب
أن يدعو ذلك إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهتم بتنفيذ ما كان
ومن ثم نزلت هذه السورة حاملة له أجمل البشرى ، ملقبة في نفسه الظمأنينة ،
معددة ما أنعم الله به عليه ، وكأنه تعالى يقول لرسوله : إن من أنعم عليك بكذا
وكذا لم يكن ليتركك ولا ينسك بعد أن هياك لحمل أمانته ، وأعدك للاضطلاع
بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحى عنك ، ولا يكن في صدرك
حرج منها ، فما ذلك إلا لتثبيت قلبك ، وتقوية نفسك على احتمال مشاقها .

الإيضاح

(والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) أقسم سبحانه لرسوله
بأيتين عظيمتين من آياته في الكون ضحى النهار وصدرة ، والليل وظلامه — إنه
ما تركك وما أبغضك كما يقال لك وما تتوهم في نفسك .

ثم ذكر له ما يثلج صدره ، وما فيه كمال الظمأنينة والبشرى فقال :
(وللاخرة خير لك من الأولى) أى وإن أحوالك في مستأنف حياتك خير
لك مما مضى منها ، وأن كل يوم ستزداد عزاً إلى عز ، وسيرتفع شأنك كل يوم
عما قبله ، وسأمنحك كل آن جلالاً فوق جلالك ، ورفعة فوق رفعتك ؛ وكأنه يقول له
لا تظن أنى كرهتك أو تركتك ، بل أنت عندى اليوم أشد تمكيناً وأقرب اتصالاً .
ولقد صدق الله وعده ؛ فما زال يسمو بنبيه ، ويرفع درجته يوماً بعد يوم حتى
بلغ الغاية التى لم يبلغها أحد قبله ، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ،

وجعل محبته من محبة الله ، واتباعه والافتداء به سبباً للفوز العظيم بنعيمه ، وجعله وأُمَّته شهداء على الناس جميعاً ، وأشر دينه ، وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة ؛ فأى فضل فوق ذلك الفضل ؟ وأى نعمة أضفى من هذه النعمة ؟ وأى إكرام فوق هذا الإكرام ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم زاده في البشري فقال :

(واسوف يعطيك ربك فترضى) أى لسوف يظهر ربك عليك نعمه ، ويوالى عليك منته ، ومنها توارد الوحي عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وسيظهر دينك على الأديان كلها ، وتعلمو كلمتك ويرتفع شأنك على شؤون الناس جميعاً .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

شرح المفردات

ضالا فهدى : أى غافلا عن الشرائع فهداك إلى منهاجها ، عائلا : أى فقيراً ، فلا تقهر : أى فلا تستذل ، فلا تنهر : أى فلا تزجر ، فحدّث : أى فأدّ الشكر لمولها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر رضاه عن رسوله ، ووعدده له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ، ويتلج قلبه — أردف ذلك بيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه ، فقد أنعم عليه بالنعمة الجليلة قبل أن يصير رسولا ؛ فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته ،

ثم نهاه عن أمرين : قهر اليتيم وزجر السائل ، لما لهما من أكبر الأثر في التعاطف والتعاون في المجتمع ، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوى الحاجة ، ثم أمره بشكرهم على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كل منها في موضعها وأداء حقها .

الإيضاح

(ألم يجدهك يتيماً فأوى) أى ألم تكن يتيماً لأب لك يُعنى بتربيتك ، ويقوم بشئونك ، ويهتم بتنشئتك ؛ فما زال بحميك ويتعهدك برعايته ، ويحببك أذناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنساني .

وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ، إذ توفي أبوه وهو في بطن أمه ، فلما ولد عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب ، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفي والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ في سن الثامنة ، فكفله عمه أبوطالب بوصية من عبد المطلب ، فكان به حفيماً ، شديد العناية بأمره ، وما زال يتعهده حتى كبر وترعرع ، حتى أرسله الله رسولا ، فقام يؤازره وينصره ، ويدفع عنه أذى قريش حتى مات ، فاستطاعت قريش أن تنال منه ، وتجراً عليه سفهاؤهم ، وسلطوا عليه علمانهم ، حتى اضطروه إلى الهجرة .

ولو تدر المنصف في رعاية الله له ، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته ، لو جد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق ، لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم ، لكن عناية الله كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفي الذي لا يمين ، والأمين الذي لا يخون ، والصادق الذي لا يكذب ، والطاهر الذي لم يدنس برجس الجاهلية .

(ووجدك ضالاً فهدى) أى ووجدك حائراً مضطرباً في أمرك ، مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم ؛ فعبادتهم باطلة ، ومعتقداتهم فاسدة ، وكان

يفكر في دين اليهودية ، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه ، إذ بدلوا دينهم ، وخالفوا ما كان عليه رُسولهم ، فيبدؤ عليه الإعراض عنه ، ثم يفكر في دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود ، فيرجع عن التفكير فيه ، وهو أحمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع .

وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد ، وضعف في البصائر ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم ، وشؤمها في أحوالهم ، بتفرق الكلمة ، وتفانيهم في سفك الدماء ، والإشراف على الهلاك باستبعاد القرباء لهم ، وتحكهم فيهم ؛ فالحبشة والفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر .

فما العمل في تقويم عقائدهم ، وتخليصهم من تحكم العادات فيهم ؟ وأى الطرق ينبغي أن يسلك في إيقاظهم من سباتهم ؟

وقصارى ذلك ، إنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل ، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم ، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم لكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه ، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

(ووجدك عائلاً فأغنى) أى إنك كنت فقيراً لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية ، فأغناك بما أجراه لك من الرمح في التجارة ، وبما وهبته لك خديجة من مالها .

وخلاصة ما تقدم — إن من آواك في يمتك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لا يتركك في مستقبل أمرك .

وبعد أن بين نعمه السابقة طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها فقال :

(فأما اليتيم فلا تقهر) أى لا تقهر اليتيم ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ،
وهذب به بمكارم الأخلاق ، ليكون عضواً نافعاً فى جماعتك ، لا جُرثومة فساد يتعدى
أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها فى غيره ، وقد كان
صلى الله عليه وسلم يقياً ، فباعد الله عنه ذل اليتيم فأواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل
يتيم شكراً لله على نعمته .

(وأما السائل فلا تنهر) أى وأما المستجدى فلا تزجره ، ولكن تفضل عليه
بشئٍ أو رده رداً جميلاً ، وقد يكون المراد من (السائل) المسترشد ، وهو أيضاً
يُطلب الرفق به وبيان ما أشكل عليه من الأمر .

(وأما بنعمة ربك فحدث) أى أوسع فى البذل على الفقراء بمالك ، وأفض من
نعمه الأخرى على طالبها ، وليس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة فى حديثها ، فإن
ذلك ليس من كرم الأخلاق فى شئ .

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتنموا ما لهم ، لتقوم لهم الحاجة فى قبض أيديهم
عن البذل ، ولا تجدم إلا شاكين من القل ؛ أما الكرماء فلا يزالون يظهرون
بالبذل مما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه .

وقد استفاضت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الإتيان على
الفقراء ، عظيم الرأفة بهم ، واسع الإحسان إليهم ، وكان يتصدق بكل ما يدخل
فى ملكه ويبيت طاوياً .

اللهم صل على محمد عبدك ، ورسولك الذى أوحيت إليه وأرضيته ، وشرحت
صدره ، واجعلنا من الذين يقتفون آثاره ، ويتبعون سنته .

مقاصد السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد :

- (١) أن الله ما قلا رسوله ولا تركه .
- (٢) وعد رسوله بأنه سيكون في مستأنف أمره خيرا من ماضيه .
- (٣) تذكيره بنعمه عليه فيما مضى وأنه سيواليها عليه .
- (٤) طلب الشكر منه على هذه النعم .

سورة الشرح

هي مكية ، وآيها ثمان ، نزلت بعد سورة الضحى .

وهي شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرأنهما في الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما بالبسمة ، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ
ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)

شرح المفردات

الشرح : البسط والتوسعة ، والعرب تطلق عظم الصدر وتريد به القوة وعظيم
المنة ، والمسرة وانبساط النفس ، ويفخرون بذلك في مدائحهم ، من قِيلَ أن سعة

الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضرا لا يضيع ذرعا يأمر ، والوزر : الحمل الثقيل ، وأنقض : أى أثقل ، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض ، أى صوت خفى .

الإيضاح

(ألم نشرح لك صدرك) أى إنا شرحنا لك صدرك ، فأخرجناك من الخيرة التى كنت تضيق بها ذرعا ، بما كنت تلاقى من عناد قومك واستكبارهم عن اتباع الحق ، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم ، فهديت إلى الوسيلة التى تنقذهم بها من التهلكة ، وتجنّبهم الردى الذى كانوا مشرفين عليه .

وقصارى ذلك — إنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لا تلتلق ولا تضجر ، وجعلناك راضى النفس ، مطمئن الخاطر ، واثقا من تأييد الله ونصره ، عالما كل العلم أن الذى أرسلك لا يخذلك ، ولا يعين عليك عدوا .

(ووضعتنا عندك وزرك . الذى أنقض ظهرك) أى حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تباعها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلا ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة من أرسلت إليهم ، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم ، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه ما يحيش بقلبه من العطف عليهم ، والحذب على راحتهم ، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقاسى فى سبيل حياتهم وتنشئتهم .

(ورفعتنا لك ذكرك) أى وجعلناك على الشان ، رفيع المنزلة ، عظيم القدر ، وأى منزلة أرفع من النبوة التى منحها الله ؟ وأى ذكر أتم من أن يكون لك فى كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمتثلون أوامرك ، ويحتمون نواهيك ، ويرون طاعتك مغنا ، ومعصيتك مغرما .

وهل من فخار بعد ذكرك فى كلمة الإيمان مع العلى الرحمن ؟ وأى ذكر أرفع

من ذكر من فرض الله على الناس الإفراز بنبوته ، وجعل الاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته ، شرطا في دخول جنته .
 هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أتخذ أمما كثيرة من رِقِّ الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل والإرادة ، والإصابة في معرفة الحق ، ومعرفة من يقصد بالعبادة ، فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بإله واحد بعد أن كانوا متفرقين طرائق قدا ، عباد أصنام وأوثان ، وشموس وأقمار ، لا يجدون إلى الهدى سبيلا ، ولا للوصول إلى الحق طريقا ؛ فأزاح عنهم تلك الغمّة ، وأثار لهم طريق الهدى والرشاد .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

شرح المفردات

العسر : الفقر والضعف وجهالة الصديق وقوة العدو وإنكار الجميل ، فرغت :
 أي من عمل ، فانصب : أي اتعب .

المعنى الجملي

بعد أن أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب ، وضيق الأمر — ذكر أن ذلك قد وقع على ماجزت به سنته في خلقه ، من إحداث اليسر بعد العسر ، وأكد هذا بإعادة القضية نفثها مؤكدة لقصد تقريزها في النفوس وتمكينها في القلوب .

الإيضاح

(فإن مع العسر يسرا) أي فإن مع الضيق فرجا ، ومنع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب مخرجا إذا تدرّع المرء بالصبر وتوكل على ربه ، ولقد كان هذا حال النبي

صلى الله عليه وسلم فإنه قد ضاق به الأمر في بادئ أمره قبل النبوة. وبعدها إذ تألب عليه قومه ، لكن ذلك لم يُثنيه عن عزمه ، ولم يقلل من حدة ، بل ضبر على مكر وهيم ، وألقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلا على ربه ، محتسبا نفسه عنده ، راضيا بكل ما يجد في هذا السبيل من أذى ، ولم تزل هذه حاله حتى قبض الله له أنصاراً أُشربت قلوبهم حبه ، وملئت نفوسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لحياتهم إلا يهدم أركان الشرك الوثنية ، فاشتروا ما عند الله من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم ، ثم كان منهم من قوَّض دعائم الأكرسة ، وأباد جيوش الأباطرة والقيصرة .

وقصارى ذلك — إنه مهما اشتد العسر ، وكانت النفس حريصة على الخروج منه ، طالبة كشف شدته ، مستعملة أجمل وسائل الفكر والنظر في الخلاص منه ، معتصمة بالتوكل على ربه ، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرة مهما أقيم أمامها من عقبات ، واعترضها من بلايا ومحن .

وفي هذا عبرة لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيبدل حاله من الفقر إلى الغنى ، ومن قلة الأعوان إلى كثرة الإخوان ، ومن عداوة قومه إلى محبتهم ، إلى أشباه ذلك . ثم أعاد الأسلوب للتوكيد فقال :

(إن مع العسر يسرا) إذا احتملت ذلك العزيمة الصادقة ، وعملت بكل ما أوتيت من قوة على التخلص منه ، وقابلت ما يقع من عسر بالصبر والأخذ بأسباب تفرجه ولم تستبطئ الفرج ، فيدعوها ذلك إلى التواني وفتور العزيمة .

وبعد أن بين نعمه على رسوله ووعده بتفريج كربته — طلب منه أن يقوم بشكر هذه النعم بالانتقطاع لصالح العمل والاتكال عليه دون من عداه فقال :

(فإذا فرغت فانصب) أى فإذا فرغت من عمل فاتعب في مزاولة عمل آخر ، فإنك ستجد في المباراة لذة تفرُّق بها عينك ويثَّالج لها صدرك .

وفي هذا حث له عليه الصلاة والسلام على المواظبة على العمل واستدامته .
 (وإلى ربك فارغب) أى ولا ترغب فى ثواب أعمالك وتشميرها، إلا إلى ربك
 وحده ، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضراعة له ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته
 وسلامه على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد :

- (١) تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم .
- (٢) وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والمحن .
- (٣) أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة .
- (٤) التوكل عليه وحده ، والرغبة فيما عنده .

سورة التين

هى مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة البروج. والمناسبت لها ما ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله صلى الله عليه وسلم، وذكر هنا حال النوع الإنسانى وما ينتهى إليه أمره، وما أعد سبحانه لمن آمن برسوله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣)
 لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥)
 إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك
 بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨).

شرح المفردات

المراد بالتين كما قال الأستاذ الإمام هنا: عهد الإنسان الأول الذى كان يستظل فيه بورق التين حينما كان يسكن الجنة؛ والمراد بالزيتون: عهد نوح عليه السلام وذريته حينما أرسل الطير فحمل إليه ورقة من شجر الزيتون، فاستبشر وعلم أن الطوفان المحسر عن الأرض، وطور سينين: الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عنده، والبلد الأمين: مكة التى كرمها الله بالكعبة، والتقويم: جعل الشيء على ماينبغى أن يكون عليه فى التأليف والتعديل؛ يقال قومه تقويمًا، واستقام الشيء وتقويم: إذا جاء وفق التقويم، وممنون: أى مقطوع، والدين: الجزاء بعد البيع.

الإيضاح

(والتين) أى قسما بعصر آدم أبى البشر الأول ، وهو العهد الذى طفق فيه آدم وزوجه يحصقان عليهما من ورق الجنة .

(والزيتون) أى وقسما بعصر الزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان ، ونجى نوحا فى سفينته ، وبعد لأى ماجاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر ، وعلم أن غضب الله قد سكت وأذن للأرض أن تبتلع ماءها لتعمر ويسكنها الناس ، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده وعمروا الأرض .

وقصارى ذلك — إن التين والزيتون يذكرا نبيي المرسلين عصر آدم أبى البشر الأول ، وعصر نوح أبى البشر الثانى .

(وطور سينين) وهو تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه ، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة ، ثم عرضت لها البدع ، فجاء عيسى مخلصا لها بما أصابها ، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف فى الدين ، حتى من الله على الناس بعهد النور المحمدى ، وإليه الإشارة بقوله :

(وهذا البلد الأمين) الذى شرفه الله بميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكرمه بالبيت الحرام .

وخلاصة ما سلف — إن الله أقسم بهذه العهود الأربعة التى كان لها أثر بارز فى تاريخ البشر ، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور .

ثم ذكر الخوف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أي لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن النزة ، يتناول ما يريد بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه ؛ إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف ، واستنباط الحيل التي بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطول ما يمتد إلى كل شيء .

لكن قد غفل عما ميّز به ، وظنّ نفسه كسائر المخلوقات ، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ، ولا ترضى عنه الفطرة ، وانطلق يتزوّد من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأعرض عن النظر فيما ينفعه في معاده ، وما يرضى به ربه ، وما يوصله إلى النعيم المقيم ، « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ثم رددناه أسفل سافلين) أي إنه استشرى فيه الفساد ، وأمعن في سبيل الضلالة ، ونسى فطرته وعاد إلى حيوانيته ، وتردّى في هاوية الشرور والآثام إلا من عصمه الله فظلوا على فطرتهم التي فطروهم عليها ، وهم من عنانهم سبحانه بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أي إلا الذين أشربت قلوبهم عقيدة الإيمان ، وعرفوا أن لهذا الكون موجدا دبر أمره ، ووضع خلقه شرائع يسرون على نهجها ، وأيقنوا أن للشر جزاء وللخير مثله .

وهؤلاء سيهطون أجر صالح أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وهم أتباع الأنبياء ومن هدام الله إلى الحق من كل أمة .

ثم وبخ المشركين على التكذيب بالجزء بعد ظهور الدليل عليه فقال :

(فما يكذبك بعد بالدين؟) أي فأى سبب يملك أيها الإنسان على التكذيب

بالجزاء على أعمالك بعد أن تظاهرت لديك الأدلة على ذلك ، فإن الذى خلقك من
 نطفة ثم سيرك بشراً سوياً - قادر على أن يبعثك ويحاسبك فى نشأة أخرى ،
 ومن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ثم بقى على عناده ، فقد طمس على بصيرته
 وفضل سواء السبيل .

ثم زاد ماسلف توكيدها فقال :

(أليس الله بأحكم الحاكمين) صنفاً وتديراً ، ومن ثم وضع الجزاء لهذا النوع
 الإنسانى ، ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل فطرته ، ثم انحدر
 منها إلى المنازل السفلى بجهله وسوء تديره ، ولهذا أرسل له الرسل مبشرين
 ومنذرين ، وأنزل معهم الشرائع ليمينوها له ويدعوها إليها رحمة به .
 سبحانه ، ما أعدلك وأحكمك ، وأنت اللطيف الخبير ، وإليك
 المرجع والمصير .

سورة العلق

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، وهي أول ما نزل من القرآن .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذكر
هنا خلق الإنسان من علق ، إلى أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح
والبيان لما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

تقدمة تاريخية

جاء في صحيح الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي غار حراء
(حراء جبل بمكة) يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيزود لمثلها،
حتى يجاه الوحي وهو في الغار إذ جاءه الملك فقال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارى ، قال :
فأخذه ثانية فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : اقرأ ، قال ما أنا بقارى . قال
فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق
الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان
ما لم يعلم .

قال الرواة : فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ،
فزملوه حتى ذهب عنه الروع ؛ فأخبر خديجة الخبر ، ثم قال : قد خشيت على نفسي ،
فقال له : كلاً ، أبشر ، فوالله لا يخرجك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق
الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ماترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على عيسى ، ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوخريجى هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرا ، ثم لم ينسب أن تؤنى ، رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

ومن ذلك تعلم أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأول رحمة رحم الله بها عباده ، وأول خطاب وُجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بقية السورة فهو متأخر النزول ، نزل بعد شيوخ بعثته صلى الله عليه وسلم وبعد أن دعا قريشا إلى الإيمان به ، وآمن به قوم منهم ، وكان جمهورهم يتحرشون بمن آمن به ويؤذونهم ، ويحاولون ردهم عن تصديقه ، والإيمان بما جاء به من عنده .

الإيضاح

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) أى صر قارئا بقدره الله الذى خلقك وإرادته بعد أن لم تكن كذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا ولا كاتباً ، وقد جاءه الأمر الإلهى بأن يكون قارئا وإن لم يكن كاتباً ، وسينزل عليه كتابا يقرؤه وإن كان لا يكتبه .

وقصارى ذلك — إن الذى خلق الكائنات وأوجدها ، قادر أن يوجد فيك القراءة ، وإن لم يسبق لك تعلمها .

ثم بين كيفية الخلق فقال :

(خلق الإنسان من علق) العلق : الدم الجامد ، أى إن الذى خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق ، وآتاه القدرة على التسلط على كل شئ مما فى هذا العالم الأرضى ، وجعله يسوده بعلمه ، ويستخره لخدمته ، قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبي صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة .

والخلاصة — إن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً يسود المخلوقات الأرضية جميعها ، قادر أن يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يتعلم القراءة والكتابة .

(اقرأ) أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وكرر الأمر لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة ؛ وتكرار الأمر الإلهى يقوم مقام تكرار المقروء ، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، تدبر قوله تعالى : « سَنَقِرُكَ بِهَا فَلا تَدْسَى » . ثم أزاح العذر الذى بينه صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ فقال ما أنا بقارى ، أى إبنى أبنى لا اقرأ ولا أكتب فقال :

(وربك الأكرم) أى وربك أكرم لكل من يربحى منه الإعطاء ، فسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه .

ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة فقال :

(الذى علم بالقلم) أى الذى جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بُعد الشقة ، كما أفهمهم بوساطة اللسان ؛ والقلم آلة جامدة لا حياة فيها وليس من شأنها الإفهام ، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان . أفيصعب عليه أن يجعل منك قارئاً مميّناً ، وتالياً معلماً ، وأنت إنسان كامل ؟

وقد وصفت سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق ، وأنه علمه بالقلم ، ليبين أحوال هذا الإنسان ، وأنه خلق من أحقر الأشياء ، وبلغ في كماله الإنساني أن صار علما بمقتاتق الأشياء ، فكأنه قيل : تدبر أيها الإنسان تجد أنك قد انتقلت من أدنى المراتب وأخسها ، إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شيء خلقه .

ثم زاد الأمر بيانا بتمام نعمته يقال :

(علم الإنسان ما لم يعلم) أى إن من صدر أمره بأن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم قارئاً ، هو الذى علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم ، ويمتاز به عن غيره من الحيوان ، وكان فى بدء أمره لا يعلم شيئاً ، فهل من عجب أن يعلم القراءة ، ويعلم كثير من العلوم سواها ، ونفسك مستعدة لقبول ذلك . وفى الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم .

ولعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم ، ولا أخصيت الجيوش ، ولضاعت الذبانات ، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل ، وعلومهم ومخترعاتهم وقوانينهم ، ولما سُجِّل تاريخ السابقين : المسبيين منهم والحسنين ، ولا كان علمهم نبراساً يهتدى به الخلف ، ويبقى عليه مائة ترقى الأمم ، وتتقدم المخترعات .

كما أن فيها دليلاً على أن الله خلق الإنسان الحى الناطق بما لا حياة فيه ولا نطق ، ولا شكل ولا صورة ، وعلمه أفضل العلوم وهى الكتابة ، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً ، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان !

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣)

أَلَمْ يَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)
 نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلَمِيدُغُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)
 كَلَّا لَا تُطْعَمُهُ وَاَقْتَرَبَ (١٩) .

شرح المفردات

المراد بالإنسان : أى فرد من هذا النوع ، يطفى : أى يتكبر ويتمادى ، استغنى :
 أى صار ذاملاً وأعواناً يعنى بهما ، والرجعى والمرجع والرجوع : المصير والعودة ،
 أرأيت : أى أخبرنى ؛ والمراد من الاستخبار إنكار الحال المستخبر عنها وتبيينها على
 نحو ما جاء فى قوله تعالى : «أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكذِّبُ بِالذِّينِ ؟» والسفع : الجذب بشدة ،
 والناصية : شعر الجهة ؛ والمراد بذلك القهر والإذلال بأشد أنواع العذاب ، والنادى :
 المكان الذى يجتمع فيه القوم ، ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله قال زهير :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديَةٌ ينتابها القول والفعل

والزبانية : واحدهم زبانية (بكسر فسكون) وزبني (بالكسر) ؛ والمراد بهم
 الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصابة من خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى مطلع السورة دلائل التوحيد الظاهرة ، ومظاهر التذرة
 الباهرة ، وعلامات الحكمة ودقة الصنع ؛ وكان ذلك كله بحيث يتعدى من العاقل
 ألا يلتفت إليه ، أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقى فى طغيان الإنسان وتكبره
 وتماديه ، وهو حبه للدنيا ، واشتغاله بها ، وجعلها أكبر همه ، وذلك يعنى قلبه ،
 ويجعله يغفل عن خلقه ، وما يجب له فى عنقه من إجلال وتعظيم ؛ وقد كان ينبغى
 أن يكون خين الغنى والميسرة ، وكثرة الأعوان ، واتساع الجاه ، أشد حاجة إلى الله .

منه في حال الفقر والمسكنة ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ، أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة ممتلكاته وأتباعه وأمواله .
 ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على ما يعمل ؟ وقد بلغ من حمقه أن يأمر وينهى ، وأنه يوجب على غيره طاعته ، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه .

أما ينبغي له أن يهتدى ويستغل بأمر نفسه ؟ فمن كان ذا عقل ورأى وثروة وجاء وأعوان ، واختار الهدى ، وتخلق بأخلاق المصلحين ، كان ذلك خيرا له ، وأجدى .

وإنا لننكثن به نكالا شديدا في العاجلة ، ونهيننه يوم العرض والحساب ، وليدع أمثاله من المغرورين ، فإنهم لن ينعوه ، ولن ينصروه .

ثم ختم السورة بأمره بالتوفير على عبادة ربه فعلا وإبلاغا للناس ، مبتغيا بذلك القربى منه .

الإيضاح

(كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) أى حقا إن أمر الإنسان لمجيب فإنه متى أحسن من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذى يجب أن يكون عليه ، واستكبر عن الخشوع لربه ، وتطاول بأذى الناس ، وعدّ نفسه فوقهم جميعا ، وقد كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون في السراء والضراء .
 ويجب الخير لهم كما يجب لنفسه .

زوى البخارى : « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وروى عن علي في نصيحته لابنه الحسن : « أحب الخير لفيرك كما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها » .

وقد حكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب في أفراده ، وإلا فإن الغنى والقوة في أيدي الأتقياء من وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ،

لأنهم يستعملونها فيما يرضى ربهم ، ويعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم .
ثم حذر من الطغيان وأندر من عاقبته ، وأبان أن ما يبذل الطاغى غارية ، وليست
نفسه بباقية ، وأن مرجع الأمر كله لله فقال :

(إن إلى ربك الرجعى) أى إن المرجع إلى ربك وحده ، وهو مالك أمرك
وما تملك ، وسيدين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة ، وتظهر في مظهر
الذل ، وتحاسب على كل ما اجتريته في حياتك الأولى ، قل أو أكثر ، عظم أوحقر
كما قال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَائِبًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمِ
تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، فَهُمْ طَعِينٌ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفْنَدَهُمْ هَوَاهُ » .

ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب فقال :

(أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) أى أخبرنى عن حال هذا الأحمق ، فإن
أمره لعجب ، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعتاد أن ينهى عبدا من عبادة الله عن
صلاته ، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته ، وهو ليس بخالق ولا رازق ، فكيف
يستطيع ذلك لنفسه ، ويعرض عن طاعة الخالق الرازق .

وقد روى أن عليا كرم الله وجهه رأى قوما يصلون قبل صلاة العيد فقال :
ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فتميل له : ألا تنهائم ؟ فقال :
أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى » .

(أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى) أى أخبرنى عن حال ذلك
الطاغية لو تخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر والتقوى الله ، أما كان ذلك خيرا له
من الكفر به والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوت عليه أعلى المراتب ، ويجعله
فى أحط الدرجات وأدناها .

والخلاصة — أما كان الأفضل له أن يرتدى ويهتدى غيره إلى خصال البر والخير ، وقد كانت هذه حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فعمله كان إما في إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيام وغيرهما ، وإما في إصلاح غيره بأسره بالتقوى ودعائه إليها .

(أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى) أى أبنيتى عن حال هذا الكافر، إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة ، وأمارات القدرة الباهرة ، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك ، ودعا الناس إلى مثل ذلك أفلا يخشى أن تحل به قارعة ، ويضيقه من عذاب الله ما لا يقبل له باحتماله ؟ ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله ، وأنه حكيم لا يهمل عقابه ، وأنه سيؤاخذ به بكل ما اقترف من جُرم ؟

ولا يخفى ما في هذا من تهديد وتخويف للمعصاة والمذنبين .

ثم زاد في الزجر والوعيد فقال :

(كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة) أى لا يستمرن بهذا الكافر جهله وغروره وطغيانه ، قسما لئن لم ينته عن هذا الطغيان ، وكيف عن نهى المصلى عن صلاته لتأخذن بناصيته ولنذيقنه العذاب الأليم .
ألا إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها ، مع أنها في قبضة خالقها ، فهي تزعم ما لا حقيقة له ، وإنها خاطئة ، لأنها طغت وتجاوزت حدها ، وعتت عن أسرارها .
ونسية الكذب والخاطئة إلى الناصية ، والكاذبُ والخَطِيءُ صاحبها ، من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء .

وقد أمر هذا الكافر على ضرب من التهمك والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به فقال :

(فليدع ناديه . سندعُ الزبانية) أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم لينتفع المصلين الخالصين ، ويؤذى أهل الحق الصادقين ، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط

ربه والتنكيل به ، وسندعو له من جنودنا كل قوى متين لا قبل له بمغالبته فهلكه في الدنيا ، أو يرديه في النار في الآخرة .

والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وسموا زبانية لأنهم يزبئون الكفار في النار أى يدفعونهم ويسوقونهم إليها .

روى أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين أغلظ له في القول : يا محمد بمن تهددنى ؟ وإني لأكبر هذا الراوى ناديا .

وروى أنه قال : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو فعل لأخذته الملائكة .

ثم بالغ في زجر الكافر عن صلته وكبريائه ، ونفى قدرته على ما تهدد به فقال : (كلاً لا تطعه واسجد واقترب) أى إنه لن يصل إلى زعمه وأن يدعو نادى

قومه ، ولئن دعائم لا ينعمونه ولا ينصرونه ، فإنه أذل وأحقر من أن يقاومك ، فلا تطعه إذا نهاك عن عبادة ربك كما قال : « فَلَآ تُطِيعِ الْمُكَدِّبِينَ » وتوفر على عبادته بالفعل وإبلاغ الرسالة للناس ، وتقرب بذلك إليه ، ولا تتعد عنه بتركها ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وصل وسلم ربنا على من أمرته بالتقرب إليك ، ونهيته عن طاعة عدوك الصَّافِ المتكبر .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على المقاصد الآتية :

(١) حكمة الله في خلق الإنسان ، وكيف رقاها من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية .

(٢) إنه لسكرمه وعظيم إحسانه علمه من البيان ما لم يعلم ، وأفاض عليه من العلوم ما جعل له القدرة على غيره مما في الأرض .

(٣) بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان ، فإذا رأى نفسه غنيا صلف وتجبير واستكبر .

سورة القدر

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة عبس .
ومناسبتها لما قبلها — أن في تلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ
القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، وفي هذه ذكر القرآن
ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس
وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته
السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ (٢) لَيْلَةُ
الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

شرح المفردات

القدر : العظمة والشرف ، من قولهم لفلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ،
تنزل الملائكة : أى تنزل وتجلى للنفس الطاهرة التى היאها الله لقبول تجليها ، وهى
نفس النبي الكريم ، سلام : أى أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أى
وقت طلوعه .

تَقْدِيمَةٌ تَبِينُ مِيقَاتِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ

أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم
في أربعة مواضع من كتابه الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا :

- (١) فى سورة القدر: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .
- (٢) فى سورة الدخان: « حُمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .
- (٣) فى سورة البقرة: « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .
- (٤) فى سورة الأنفال: « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانَ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

فآية القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان فى ليلة اليوم المائل ليوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر ، التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان ، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان .

الإيضاح

(إننا أنزلناه فى ليلة القدر) أى إننا بدأنا نزل الكتاب الكريم فى ليلة الشرف ، ثم أنزلناه بعد ذلك منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث التى كانت تدعو إلى نزول شىء منه ، تبياناً لما أشكل من الفتوى فيها ، أو عبرة

بما يقص فيه من قصص وزواجر، ولا شك أن البشر كان في حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم وديانهم، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى وأمر النشأة الآخرة، لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقة حتى يستنوا لأنفسهم من النظم ما يقنعهم عن الدين والتدين، وحوادث الكون التي تراها رأى العين كقيلة بأن تبين وجه الحق في ذلك، فإن الناس من بدء الخليقة يبدئون ويعيدون، ويصححون ويراجعون في قوانينهم الوضعية، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمن أنها لا تكفي لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرشاد، وتمنعه من الوقوع في مهاوى الزلل، ومن ثم قيل: لاغنى للبشر عن دين ولا عن وازع وروحي يضع لهم مقاييس الأشياء وقيمتها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها، كما لاغنى له عن الاعتقاد في قوة غيبية يلجأ إليها حيث يظلم عليه ليل الشك، وتختلط عليه ظروف الحياة وألوان مآسيها اه .

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط به إلا هو فقال :

(وما أدراك ما ليلة القدر؟) أى ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها، ومنتهى علو قدرها .

وفي هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء، وإنما يعلمه علام الغيوب الذى خلق العوالم وأنشأها من العدم .
ثم أوضح مقدار فضلها فقال :

(ليلة القدر خير من ألف شهر) لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذى أنزل لخير البشر، ويكون فيها وضع الحجر الأساسى لهذا الدين الذى هو آخر الأديان الصالح لهم في كل زمان ومكان، هى خير من ألف شهر من شهورهم التى كانوا يتخبطون فيها فى ظلام الشرك وضلال الوثنية، خيارى لا يهتمون إلى غاية، ولا يقفون عند حد .

وقد يكون التحديد بالألف جارياً على ما يستعملونه في مخاطبتهم من إرادة الكثرة منه ، لا إرادة العدد المعين ، كما جاء في قوله : « يَوْمَ أَخَذَهُمْ تَوْبَعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعانى التى تدعو إلى التفضيل وله الحكمة البالغة .

وأى عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدى فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه صلى الله عليه وسلم حقب متتابعة وهم فى ضلال الوثنية .

وأى شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلهية على قباب رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة بعباده ، يبشرهم وينذرهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحمل منهم أمة تجرر الناس من استعباد الفياصرة ، وجبروت الأكاسرة ، ويجمعهم بعد الفرقة ، ويلم شعثهم بعد الشتات .

فحق على المسامحين أن يتخذوا هذه الليلة عيداً لهم ، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور السماوى ، الذى وجه المسلمين تلك الوجهة الصالحة النافعة ، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياضته بأنفسهم وأموالهم ، شكرياً له على نعمه ، ورجاء مشوبته .

ثم ذكر سبحانه بعض مزايا هذه الليلة المباركة فقال :

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) أى تنزلت الملائكة من عالمها الروحاني حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم ، وتمثل له الروح (جبريل) مبلغاً للروحى ، وهذا التجلى على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هياأ لقبوله ليبلغ عباده ما فيه الخير والبركة لهم .

ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شئونه تعالى ، لا نبحت عن كيفية ، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره ، فما عرف العالم بعد علمه

المسأى بشتى وسائله إلا النذر اليسير من الأكون كما قال تعالى : « وَمَا أُرْتِيْتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

والخلاصة — إن هذه الليلة عيد للمسلمين لنزول القرآن فيها ، وليلة شكر على
الإحسان والإنعام بذلك ، تشاركهم فيها الملائكة بما يشعر بمظمتها ، ويشعر بفضل
الإنسان وقد استخلفه الله في الأرض .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) أى هذه الليلة التي حفتها الخير بنزول القرآن ،
وشهود ملائكة الرحمن ، ليلة كلها سلامة وأمن ، وكلها خير وبركة ، من
مبدئها إلى نهايتها ؛ ففيها فرّج الله الكرب عن نبيه ، وفتح له سبل الهداية
والإرشاد .

فصل وسلم ربنا على محمد الذى أكرمه بإنزال الدستور الشامل لخير البشر إلى
يوم القيامة .

سورة البينة

هى مدينة ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الطلاق .
 ووجه مناسبتها لما قبلها — أن قوله : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَئِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : إِمَّا أَنْزَلْنَاهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ عَنْ كُفْرِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَهِمْ رَسُولٌ يُتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ
 قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ
 الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)
 جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، المشركون : عبدة الأوثان والأصنام من
 العرب وغيرهم ، منفكين : أى مفارقين مام عليه ، والبينة : الحججة الواضحة ، والمراد

بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحف : واحداها صحيفة : وهي ما يكتب فيه ، مطهرة : أى مبرأة من الزور والضلال ، والقيمة : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتغالها على الحق ، والبينة : الثانية الدليل ، والإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصه تعالى ، لا يشرك به سواه ، الدين : العبادة ، وإخلاص الدين لله : تنقيته من أدران الشرك ، حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف ؛ والمراد به المنحرف عن الزرع إلى إسلام الوجه لله ، والبرية : الخليفة ، خشى الله : أى خاف عقابه .

المعنى الجملى

كان اليهود والنصارى من أهل الكتاب فى ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم ، إلا من عصم الله ، لأن أسلافهم غيروا وبدلوا فى شرائعهم ، وأدخاوا فيها ما ليس منها ، إما لسوء فهمهم لما أنزل على أنبيائهم ، وإما لاستحسانهم ضروبا من البدع توهموها مؤيدة للدين ، وهى هادمة لأركانها ، وإما لإخام خصومهم ، والرغبة فى الظفر بهم .

وقد تواتت على ذلك الأزمان ، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه من قبلهم حتى خفيت معالم الحق ، وطمست أنوار اليقين .

وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرت نفوسهم على غيابتها ، والخنوع لها ، وأصبح من العسير تحويلهم عنها ، زعما منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان الجدل ينشب حينما بين المشركين واليهود ، وحينما آخر بين المشركين والنصارى ، وكان اليهود يقولون للمشركين : إن الله سيبعث نبيا من العرب من أهل مكة ، وينعتونه لهم ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصرود وآزروه ، واستنصروا به عليهم حتى يبئدهم .

قد كان هذا وذلك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قام المشركون يفاوضونه

ويرفمون راية العصيان في وجهه ، وألبوا الناس عليه ، وآذوا كل من اتبعه وسلك
سبيله من أنار الله بصائرهم ، وشرح صدورهم لمعرفة الحق .

كذلك قلب له اليهود ظهر اجتن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به ،
إذ وجدوا نعتهم عندهم في التوراة ، فزعموا أن ما جاء به من الدين ليس بالبدع الجديد ،
بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم ، فلا ينبغي أن يتركوا مام
عليه من الحق ، ليتبعوا رجلا ما جاء بأفضل مما بين أيديهم ، بل قد بلغ الأمر بهم
أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويهددونهم بأنهم سيبغون هذا
النبي وينصرونه .

ففي الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يمجدون واضح الحق ، ويقمضون
أعينهم عن النظر فيه — نزلت هذه السورة .

الإيضاح

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم
البينة) أي لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا نبوته من
اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم ، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن
الحق ، والوقوف عند ما كان عليه آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ، حتى يأتيهم
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحدث بحجته رجّة فيما رسخ من عقائدهم ، وتمكن
من عاداتهم ، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ما جاء به هو ما كان بين أيديهم
وليس بمستحسن أن يتبع ، والبقاء على مام عليه أجدر وأجل ، والسير على نهج
الآباء أشهى إلى النفس وأسلم .

ثم فسر البينة التي تعرفهم وجه الحق فقال :

(رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) أي هذه البينة هي محمد
صلى الله عليه وسلم يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيف والتدليس ، والتي

تنبعث منها أشعة الحق كما قال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »
 وفيها الصحيح القويم من كتب الأنبياء السابقين كوسى وعيسى وإبراهيم كما قال :
 « وَإِنَّهُ لِنَبِيِّ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » ، وقال : « إِنَّ هَذَا لِنَبِيِّ الضُّعْفِ الْأَوَّلِيِّ . ضُعْفِ
 إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » .

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فإن كل سورة منه كتاب
 قويم ، أو الأحكام والشرائع التي تضمنها كلام الله ، والتي بها يتبين الحق من
 الباطل كما قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا .
 قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقصارى ذلك — إن حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد
 مجيء الرسول تخالف حالهم قبلها ، فقد كانوا قبل مجيئه كفاراً يتيمون في عمية من
 الأهواء والجهالات ، فلما بعث آمن به قوم منهم ، فلم تبق حالهم كما كانت قبل ،
 إلى أنهم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين بما هم عليه ، واثقين بصحته ،
 فلما بعث إليهم تغيرت حال جميعهم ، فمنهم من آمن به ، واعتقد أن ما كان فيه
 ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار متردداً في صحة ما هو عليه ، أو هو
 واثق بعدم صحته ، ولكن يمنعه العناد والتكبر والافتداء بالأباء من متابعة الرسول
 صلى الله عليه وسلم .

ثم سأل رسوله صلى الله عليه وسلم عن تفرق القوم في شأنه فقال :

(وما تفرق الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) أى لا تبعث
 نفسك عليهم حسرات ، ولا يكون في صدرك حرج منهم ، فإن هذا شأنهم الذي
 درجوا عليه ، ودينتهم ودين أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم ، وتفرقوا
 طرائق قددا حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند غيره بغيا وعدوانا وقولا بالتشهى
 والهوى ، ولم يكن تفرقهم تقصير حجتك أو خفاء شأنك عليهم ، فهم إن يجحدوا

ببنتك فقد جحدوا بينة من قبلك ، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم .

وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما ظنك بالمشركين وهم أعرق في الجهالة وألسن مقادة للهوى .

ثم أنبهم ووجههم على ما صاروا إليه من الأفعال ، وعلى ما بلغوه من فساد العقل والضلال فقال :

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أى إنهم تفرقوا واختلفوا وهم لم يؤمروا إلا بما يصاح دينهم ودينهم ، وما يجلب لهم سعادة فى معاشهم ومعادهم من إخلاص لله فى السر والعلن ، وتخليص أعمالهم من الشرك به ، واتباع ملة إبراهيم الذى مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له كما قال : « **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** » وقال : « **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا** » .

والمراد من إقامة الصلاة الإتيان بها مع إحضار القلب لهيئة العبود ، ليعتاد الخضوع له ؛ وإيتاء الزكاة إنفاقها فيما عين لها فى الكتاب الكريم من المصارف . (وذلك دين القيمة) أى هذا الذى ذكر من إخلاص العبادة للخالق ، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدين الذى جاء فى الكتب القيمة . وقصارى ماسلف — إن أهل الكتاب افرقوا فى أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له فى عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أبًا ولا رئيسًا ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف .

وهذا ما نراه الله من حال أهل الكتاب فى افرقهم فى دينهم ، فما بالناس نحن المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعا ومحدثات ، وتفرقتنا فيه شيعة ، أفليس مانحن فيه من ذل وهوان ، وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج الشرع القويم ، والسير على الصراط المستقيم ؟

ثم بين جزاء الذين جحدوا رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :
 (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدون فيها)
 أى إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبیح الشرك واجترأ المعاصى ، وإنكار الحق
 الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، يجازيهم ربهم بالعقاب الذى لا يخلصون
 منه أبداً ، فيدخلهم نارا تلتغى جزاء ما كسبت أيديهم ، وجزاء إعراضهم عما دعا
 إليه الداعى ، وهدت إليه النظرة .

ثم حكم عليهم بحكم آخر فقال :
 (أولئك هم شر البرية) أى هم شر الخليقة على الإطلاق ، إذ منكر الحق بعد
 معرفته ، وقيام الدليل عليه منكر لعنائه ، جالب لنفسه الدمار والوبال .
 وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين ، أردفه جزاء المؤمنين الخبيثين فقال :
 (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) أى إن الذين سطع
 نور الدليل في قلوبهم ، فاهتدوا به وصدقوا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وعملوا
 صالح الأعمال ، قبلوا النفس في سبيل الله وجهاد أعدائه ، وبذلوا نفوس المال
 في أعمال البر ، وأحسنوا معاملة خلقه ، أولئك هم خير الخليقة ، لأنهم بمتابعة الهدى
 أدوا حق العقل الذى شرفهم الله به ، وبعلمهم للصالحات حفظوا الفضيلة التى جعلها
 الله قوام الوجود الإنسانى .

ثم بين ماسيلتون من جزاء عند ربهم فقال :
 (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً) أى
 هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيسون فيها أبداً ، وفيها من اللذائذ ما هو أكمل وأوفر
 من لذات الدنيا .

وعلمنا أن تؤمن بالجنة ولا تبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيف
 يتمتع فيها ، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو ، فهو من علم الغيب الذى
 استأثر به .

ثم ذكر أسباب هذا الجزاء فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى إنهم حازوا رضا الله بالتزام حدود شريعته ، فحمدوا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرضيهم فى دنياهم وآخرتهم .
(ذلك لمن خشى ربه) أى هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه الخشية والخوف من ربه .

وفى ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال ؛ كما أن فيه ترغيبا فى تذكار الله ورهيبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصا ، إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشعية لا يكفي فى نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء ، لأن الخشعية لم تحل قلوبهم ، ولم تهذب نفوسهم .
نسأل الله أن يظهر قلوبنا ، وينير بصائرنا ، حتى لا نهرب سواه ، ولا نحشى إلا إياه ، والحمد لله رب العالمين .

سورة الزلزلة

هى مدنية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة النساء .

ووجه مناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر فيما سلف جزاء المؤمنين والكافرين ، بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا؟ (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

شرح المفردات

الزلزلة : الحركة الشديدة مع اضطراب ، والأنتقال : واحدها إنتقل ؛ وهو في الأصل متاع البيت كما قال : « وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَسْكُونُوا بِأَعْيُنِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » والمراد به هنا ماني جوف الأرض من الدفائن كالموتى والسكنوز ، وتقول أوحيت له وأوحيت إليه ووحى له ووحى إليه ، أى كلبه خفية أو ألمه كما جاء في قوله : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّجْلِ » يصدر : أى يرجع ، فالوارد هو الآتى للماء ليشرب أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه ، أشتاتاً : واحدهم شتيت أى متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم في طريق واحدة ، الذرة : التلة الصغيرة ، أو هى الهباء الذى يرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مثل في الصغر .

سبب نزول هذه السورة

كان الكفار كثيراً ما يسألون عن يوم الحساب فيقولون : « أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » ويقولون : « مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ؟ » وما أشبه ذلك ، فذكر لهم في هذه السورة علامات ذلك فحسب ، ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذى يعرض الناس فيه على ربهم لعقاب المذنبين وثواب المؤمنين .

الإيضاح

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) أى إذا اضطربت الأرض وتحركت حركة شديدة .
 ونحو الآية قوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا » ، وقوله : « يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

وفى ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ ، ولفت لأنظار الكافرين إلى أن يتدبروا

الأمر ويعتبروا ، وكان يقال لهم : إذا كان الجحاد يضطرب لهول هذا اليوم ، فهل
لكم أن تستيقظوا من غفلتكم ، وترجعوا عن عنادكم ؟

(وأخرجت الأرض أنفالمها) أى وأخرجت الأرض مافي جوفها من السكنوز
والدفائن والأموات ، فانها لشدة اضطرابها يشور باطنها ويقذف مافيها .
ونحو الآية قوله : « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » .

ومثال هذا ما نراه في حياتنا الدنيا من جبال النار الثائرة (البراكين) كما حدث
في إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثوران بركان ويزوف وابتلاعه مدينة مسينا ولم يبق من
أهلها دياراً ولا نافخ نار .

(وقال الإنسان مالها؟) أى وقال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال
الذى يخالف أمثاله في شدته ، ويحار العتل في معرفة أسبابه ، ويصديه الدهش مما
يرى ويبصر : مال هذه الأرض ، وما الذى وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل ؟ كما
جاء في آية أخرى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ » .

(يومئذ تحدث أخبارها) أى في ذلك الوقت وقت الزلزلة تحدثك الأرض
أحاديثها ، والمراد أن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانتقال ، وما لم يعهد له نظير
من الخراب ؛ تُعلم السائل وتفهّمه أن ما يراه لم يكن لسبب من الأسباب التى وضعت
لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا السكون .

ثم بين سبب ما يرى فقال :

(بأن ربك أوحى لها) أى إن ما يكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر إلهي
خاص ، فيقول لها : كوني خرابا كما قال لها حين بدء النشأة الأولى كوني أرضا ،
وإنما سمى ذلك وحيا ، لأنه أتى على خلاف ما عهد منذ نشأة الأرض ، قاله
الأستاذ الإمام .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) أى يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم
الأرضي ، ويظهر ذلك السكون الجديد كونه الحياة الأخرى ، يصدر الناس متفرقين

ممايزين ، فلا يكون محسن في طريق واحد مع مسيء ، ولا مطيع مع عاص ، ليريههم الله جزاء ما قدمت أيديهم ، ويجذوا ثمر ما غرسته أيانهم .

ثم فصل ذلك بقوله :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أى فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يجزاه ، ومن يعمل الشر ولو قليلاً يجزاه ، لافرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فيهم به خالدون في الشقاء ، وما نطق من الآيات بجبوت أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم ، فالمراد به أنها لا تنجهم من عذاب الكفر وإن خفت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شئ ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ التِّسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . فقوله : « فلا تظلم نفس شيئاً » صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء . وأن كلا يوفى يوم القيامة جزاءه ؛ وقد ورد أن حاتماً يخفف عنه لكرمه ، وأن أباهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين :

- (١) اضطراب الأرض يوم القيامة ودهشة الناس حينئذ .
- (٢) ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم .

سورة العاديات

هي مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة العصر .
 ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها — أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر
 أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستعدون لحياتهم الثانية ،
 بتعويدهم أنفسهم فعل الخير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَأُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَأَلْمُغِزَاتِ صُبْحًا (٣)
 فَأُثْرْنَ بِهِ تَقَعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)
 وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا
 بُعِثَ إِلَىٰ الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
 يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

شرح المفردات

العاديات : واحدها عادية من العدو وهو الجرى ، والضبح : صوت أنفاس
 الخيل حين الجرى . قال عنتره :

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا

والموريات : واحدها مورية من الإبراء وهو إخراج النار تقول : أورى فلان
 إذا أخرج النار برئد ونحوه ، والقدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر ،
 والمغيزات : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقته أو يأسره ،
 أو يستلب ماله ، والإثارة : التهييج وتحريك الغبار ، والقمع : الغبار ، ووسطن :

أى توسطن تقول وسطتُ التوم أسطهم وسطا : إذا صرت في وسطهم ، والكنود : الكفور ، يقال كند النعمة أى كفرها ولم يشكرها وأنشدوا :

كنود لنماء الرجال ومن يكن
كنودا لنماء الرجال يُبَعَدُ

وأصل الكنود الأرض التى لا تثبت شيئا ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويحصد ما عليه من واجبات ، لشهيد : أى لشاهد على كنفوده وكفره بنعمة ربه ، والخير : المال كما جاء فى قوله : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » ، أشديد : أى لبخيل ، بعثر : أى بعث وأثير ، وحصل : أى أظهر محصلا مجعولا ، مافى الصدور : أى مافى القلوب من العزائم والنوايا .

الإيضاح

(والمعاديات ضبحا) أى قسما بالخليل التى تعدو وتجري ويسمع لها حينئذ ضبح أى زفير شديد .

(فالموريات قدحا) أى والخليل التى تخرج النار بمخوافرها ويتطاير منها الشرير أثناء الجرى .

(فالمغيرات صبحا) أى والخليل التى تعدو تهجم على المدو وقت الصباح ، لأخذها على غير أهبة واستعداد .

(فأثرن به نقما) أى فهيجن فى الصباح غبارا لشدة عدوهن .

(فوسطن به جمعا) أى فتوسطن جمعا من الأعداء ففرقنه وشتتن شماله .

أقسم سبحانه بالخليل التى لها هذه الصفات ، والتي تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجِدِّ والعمل ، وليقنوا برببيتها وتعويدها الكبر والفر ، وليحملهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها ليكون كل امرئ مسلم منهم عاملا ناصبا إذا جدَّ الجِدُّ واضطرت الأمة إلى صدِّ عدوٍّ أو بعثها باعث على كسر شوكته ، يرشد إلى ذلك قوله فى آية أخرى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وفي إقسام الله بها بوصف العاديات المفريات الموريات - إشارة إلى أنه يجب أن تقنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة ، وأن الركوب الذي يحمى ما يكون لسكبج جراح الأعداء ، وخضد شوكتهم ، وصد عدوانهم .

وقصارى ذلك - إن للخيل في عدوها فوائد لا يحصى عدوها ، فهي تصلح للطلب ، وتسعف في الحرب ، وتساعد جد المساعدة في النجاء ، والكر والفر على الأعداء ، وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل .

ثم ذكر المحلوف عليه بتلك الأيمان الشريفة فقال :

(إن الإنسان لربه لكنود) أى إن الإنسان طبع على نكران الحق وجحوده وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له إلا من عصمهم الله وهم الذين روضوا أنفسهم على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، ما ظهر منها وما بطن .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقده » أى إنه لا يعطى شيئاً مما أنعم الله به عليه ، ولا يراف بعباده كما راف به ؛ فهو كافر بنعمته ، مجانف لما يقضى به العقل والشرع .

ومر هذه الجبيلة - أن الإنسان يحصر همه فيما حضره ، وينسى ماضيه ، وما عسى أن يستقبله ؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته ، وقسا قلبه ، وامتلاً جفوة على عباده .

(وإنه على ذلك لشهيد) أى وإنه مع كنوده ولجأته في الطغيان ، وتماديه في الإنكار والبهتان ، إذا خلى وتغنى رجع إلى الحق ، وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه - إلى أن أعماله كلها جحود لنعم الله ، فهي شهادة منه على كنوده ، شهادة بلسان الحال ، وهى أفصح من لسان المقال .

(وإنه لحب الخير لشديد) أى وإن الإنسان بسبب محبته للمال وثقله به وتعلقه بجمعه وادخاره - لبخيل شديد فى بخله ، حريص متناهٍ فى حرصه ، يمسك منبالمغ فى إمساكه ، متشدد فيه ، قال طرفة :

أرى الموت يعتاق الكرام ويصطفى عقيمة مال الفاحش المتشدد

ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور ؟ . إن ربهم بهم يومئذ لخبير) أى أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه ، الجاحد لفضله وأياديه - أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه ، وأنه مجازيه على جرده وإنكاره يوم يحصل ما فى الصدور ويبعث ما فى القبور ؟ ،

وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم - بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم ، وهذا كثير فى الكلام ، تقول لشخص فى معرض التهديد : سأعرف لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعا ، وإنما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة وهو مجازاته بما يستحق ، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى : «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلا ؛ فالمراد سنجازهم بما قالوا الجزاء الذى هم له أهل . والله أعلم .

سورة القارعة

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة قريش . ومناسبتها لما قبلها - أن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة يأسرها فى وصف ذلك اليوم ، وما يكون فيه من الأهوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ
يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ (٨) فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ
حَامِيَةٌ (١١)

الإيضاح

(القارعة) من أسماء القيامة كالخاقة والصاخة والطامة والغاشية ؛ وسميت
بذلك لأنها تفرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر
قارعة قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ
حَادِثَةٌ عَظِيمَةٌ تَفْرَعُهُمْ وَتَصُكُّ أَجْسَادَهُمْ فَيَأْمُونُ لَهَا .

(ما القارعة ؟) أى أى شئ هى القارعة ؛ وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها
كأنها أشدة ما يكون فيها من الأهوال ، التى تفرع منها النفوس ، وتدهش لها العقول ،
يصعب تصورها ، ويتعذر إدراك حقيقتها .

ثم زاد أمرها تعظيماً فقال :

(وما أدراك ما القارعة) أى وأى شئ يعرفك بها ، كأنه لاشئ يحيط بها ؛
فهما تخيلت أمرها وحدست شأنها فهى أعظم من تقديرك .

ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه ، أخذ يعرف بزمانها الذى
تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

(يوم يكون الناس كالفراس المبيوث) الفراس : هو الحشرة التي تراها تترامى على ضوء السراج ليلاً ، وبها يضرب المثل في الجهل بالعاقبة قال جرير :
 إن الفرزدق ما علمت وقومته مثل الفراس غشين نار المصطلي
 والمبيوث : الفرق المنتشر ، تقول بثت الشيء : أى فرقته .
 أى إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون ، ولا ماذا يراد بهم كالفراس الذى يتجه إلى غير جهة واحدة ، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى .
 وجاء تشبيههم فى آية أخرى بالجراد المنتشر فى كثرتهم وتتابعهم فقال : « كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

(وتكون الجبال كالعن المنفوش) العن (بكسر العين وسكون الماء)
 الصوف ذو الألوان ، والمنفوش : الذى نقش فقرت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح .
 أى إن الجبال لثفتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، فكيف يكون الإنسان حين حدوثها وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال .
 وقد كثر فى القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ كَمَرٍ مَّرَّةٍ السَّحَابِ » وقال : « فَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً » وقال : « وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا » كل ذلك ليعين أن هذه الأجسام العظيمة التى من طبعها الاستقرار والثبات تؤثر فيها هذه القارعة ، فما بالك أيها الخلق الضعيف الذى لا قوة له ؟

وفى هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما لا يخفى .
 وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض المخلوقات - أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

(فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية) يقال ثقل ميزان فلان إذا كان له قدر وميزنة رفيعة ، كأنه إذا وضع في ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الواجحة ، فهؤلاء يحوزون النعيم الدائم ويكونون في عيشة راضية ، تقرّ بها أعينهم ، وتسرّ بها نفوسهم .
ويرى بعض المفسرين أن الذي يوزن هو الصحف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات .

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال :
(وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) يقال خف ميزانه : أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع في كفة ميزان لم يرجح بها على أختها ، ومن كان في الدنيا كثير الشر ، قليل فعل الخير ، فدسى نفسه بالشرك واجترأ المعاصي وعاث في الأرض فسادا - لم يكن شيئا ، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها .
وعلى الجملة فعلينا أن نؤمن بما ذكره الله من الميزان في هذه الآية وفي قوله :
« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ومن وزن الأعمال ، وتمييز مقدار لكل عمل ، وليس علينا أن نبحث وراء ذلك ، فلا نسأل كيف وزن ، ولا كيف يقدر ؟
فهو أعلم بغيبه ، ونحن لا نعلم .

أما أن الميزان له لسان وكفتان فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يلزمنا التصديق به ، وكيف يوزن بهذا الميزان الذي تعلمه الإنسان في مهد البداوة الأولى ، ويترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس ؛ على أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأتقال الجسمانية لا ميزان للعناني المعقولة كالحسنات والسيئات ، فلنفوض أمر ذلك إلى عالم الغيب .

والمراد من كون أمه هاوية - أن مرجعه الذي يأوى إليه صهوة سحيفة في جهنم يهوى فيها ، كما يأوى الولد إلى أمه ، قال أمية بن أبي الصلت :
فالأرض مقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

(لوما أدراك ما هيه ؟) أى وأى شئ يخبرك بما هي تلك الهاوية ، وأنها أى شئ تكون ؟ .

ثم فسرها بعد إبهامها فقال :

(نار حامية) أى هي نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل ، وما أجترح من سيئات .

وفي هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية ، وذلك دليل على قوة حرارتها ، وشدة استعمارها .
وقانا الله شر هذه النار الحامية ، وآمننا من سعيها بمنه وكرمه .

سورة التكاثر

هي مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر .

ومناسبتها لما قبلها - أن في الأولى وصف القيامة وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن في هذه ذكر الجحيم وهي الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة ، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال في الحياة الدنيا ، وهذا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ
عَنِ النَّعِيمِ (٨)

شرح المفردات

اللهو: ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يسرّ أم لا ، ثم خص بما يشغل بما فيه سرور ؛ وإذا أُلهي المرء بشيء فهو غافل به عما سواه ، والتكاثُر: التباهى بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك ولها ، أنا أكثر منك رجال ضرب و حرب ، حتى زرتم المقابر : أى حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبورَ أبو مالك فأصبح ألامَ زُوارها

علم اليقين : أى علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم: دار العذاب عين اليقين : أى عين هي اليقين نفسه .

أسباب نزول السورة

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة قال : نزلت «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ» في قبيلتين من الأنصار وهما بنو حارثة وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى : مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه السورة .

الإيضاح

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) أى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار والأشياء ، و صرفكم ذلك عن الجد في العمل ، فكنتم في لهو بالقول عن الفعل ، وفي غرور وإعجاب بالأباء والأعوان ، و صرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهلكم ، وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذى سرتم عليه .

وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ألهاكم الشكائر قال : يقول ابن آدم مالي ومالي ، وابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأَمْضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان : وإن يملأاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

قال الأستاذ الإمام : وقد يكون معنى الشكائر التغالب في الكثرة ، أى طلب كل واحد منهما أن يكون أكثر من الآخر مالا أوجاهها ، والسعى إلى ذلك لجرد المغالبة ، لا بمعنى الساعى في سعيه إلا أن يكون مالها أكثر من مال الآخر ، أو أن يكون عضده أقوى من عضده ، لينال بذلك لذة التعلى والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الغالب من طلاب الثروة والقوة ، ولا ينظر الدائب منهم في عمله إلى تلك الغاية الرفيعة ، غاية البذل مما يكسب في سبيل الخير ، أو النهوض بالقوة إلى نصر الحق ، وحل المبطلين على معرفته والتوجه إليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه .

وهذا معنى مقول ذهب إليه بعض المفسرين ، وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ (ألهاكم) فإن الذى يلهى الناس عن الحق في كل حال ، ويصرف وجوههم عنه إلى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ، ليعلو عليه ، أو ليستخدمه لسلطانه ، بقدر ما يدخل في إمكانه ، أما التفاخر بالأقوال فإما يلهيهم في بعض الأحوال اهـ .

(حتى زتم المقابر) أى حتى هلكتم وصرتم من الموتى ، فأضعت أعماركم فيما لا يجدى فائدة ، ولا يعود عليكم بمائدة ، في حياتكم الباقية الخالدة .

قال العلماء : إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسى ، لأنها تذكر بالموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها ،

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكركم الآخرة » .

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين كاختلاط الرجال بالنساء وحدث فتن لا تحمد عقباها .

ثم نهىهم إلى خطأ ما هم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة فقال :

(كلا سوف تعلمون) أى ازدجروا عن مثل هذا العمل الذى لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران ، والضعينة والأحقاد ، والجثوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وإينكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكثار إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح نافع لكم فى العقبى .
ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

(ثم كلا سوف تعلمون) وهذا وعيد بعد وعيد فى مقام الزجر والتوبيخ كما يقول السيد لعبد : أقول لك لا تفعل ، ثم أقول لك لا تفعل .

(كلا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تفريكم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلتم ذلك عن التكثار ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وإن مائدعونه علما ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير ، لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة فى زجرهم لتفريهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا : إنهم يعلمون العواقب ، وأنهم فى منتهى اليقظة وسداد الفكرة .

ثم ذكر لهم بعض ما ينتهي إليه هذا اللهو ، وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا فقال :

(لترونَّ الجحيم) أى إن دار العذاب التى أعدت لمن يلهو عن الحق لاريب فيها ولترونها بأعينكم ، فاجملوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم ، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

والمراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم .
ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

(ثم لترونها عين اليقين) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه ، إلى أى دين أو إلى أى شخص كانت نسبتكم فلتتقوا الله ربكم ، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها ، ولتتظروا إلى ما أتم فيه من نعمة ، ولترعوا حق الله فيها ، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه ، ولا تجتروا السيئات وتفتروا المنكرات ، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ، ويرحمكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامى وتلقيبكم بألقابه ، مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملكم عمل أعداء الإسلام .
ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

(ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم) أى إن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتمدونه مما يباهى به بعضكم بعضا — ستسألون عنه — ماذا صنعتم به ؟ هل أديتم حق الله فيه وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ، فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « أى نعيم نسأل عنه يارسول الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ظلال المساكين والأشجار ، والأخبية التى تقيكم الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار » .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح آمنا في سربه ،
معافى في بدنه ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .
اللهم وفقنا لشكر نعمتك وأداء حقها ، لنجد الجواب حاضرا حين سؤالنا عنها ،
اللهم آمين .

سورة العصر

وهي مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة الشرح .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر
والتكاثرو بكل ما من شأنه أن يلهي عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان
داعية له إلى البوار ، وموقعة له في الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ،
فكان هذا تعليل لما سلف — إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه ،
وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة ، وهنا ذكر من يجعل لأجل الطباع ، فأمن
بالله وعمل الصالحات ، وتواصى مع إخوانه على الاستمسك بعُرى الحق ، والاصطبار
على مكارهه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

شرح المفردات

العصر : الدهر ، والإنسان : هو هذا النوع من المخلوقات ، والخسر والخسران :
النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة ،

والحق : هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة ، أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل ، الطيب ، وتهوّن عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة ، والتواصي بالحق : أن يوصى بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير ، والتواصي بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه عليه ، ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمل المرء نفسه به وإلا صدق عليه قول أبي الأسود الدؤلي :

يأبى الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كما يصح به وأنت ستقيم

الإيضاح

(والعصر) أقسم ربنا سبحانه بالدهر لما فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبلغ حكمته وواسع علمه ، انظر إلى ما فيه من تماقب الليل والنهار وهما آيتان من آيات الله كما قال : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإلى ما فيه : من سراء وضراء ، وصحة وسقم ، وغنى وفقير ، وراحة وتعب ، وحزن وفرح ؛ إلى نحو ذلك مما استرشد به حصيف الرأي إلى أن للكون خالقاً ومدبّراً ، وهو الذي ينبغي أن يوجه إليه بالعبادة ويدعى لتكشيف الضر وجلب الخير — إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر ، فيقولون هذه ثابتة من نواب الدهر ، وهذا زمان بلاء ، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خلق من خلقه ، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها ، فإن وقعت للمرء مصيبة فيما كسبت يده ، وليس للدهر فيها من سبب .

(إن الإنسان لفي خسر) أى إن هذا الجنس من المخلوقات — لخاسر في أعماله ضرّاً من الخسران إلا من استثناهم الله ، فأعمال الإنسان هي مصدر شقائه ، لا الزمان

ولا للمكان ، وهي التي توقفه في الملاك ، فذنب المرء في حق بارئه ، ومن يمن عليه
بعمته الجليلة ، وآلائه الجسيمة ، جريمة لا تعد لها جريمة أخرى .
(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فاعتقدوا اعتقادا صحيحا أن للعالم كله إلهاً
خالقاً قادراً يرضى عن المطيع ، ويقضب على العاصي ، وأن هناك فرقا بين التفضيلة
والرذيلة ، فذنبهم ذلك إلى عمل البر والخير — وجماع ذلك تقع المرء نفسه ونفمه
للناس أجمعين .

وخلاصة أمرهم — أنهم باعوا الفاني الحسيس ، واشتروا الباقي النفيس ،
واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغايات الرأحيات ، فيا لها من صفقة ما أربحها ، ومنقبة
جامعة للخير ما أوتجها .

(وتواصوا بالحق) أى وأوصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لا سبيل إلى
إنكاره ، ولا زوال فى الدارين لحاسن آثاره ، وهو الخير كله من إيمان بالله عز وجل
واتباع نكته ورسله فى كل عقد وعمل .

(وتواصوا بالصبر) أى وأوصى بعضهم بعضا بالصبر عن العاصي التى تشاق إليها
النفوس بحكم الجبلة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبغى
الله تعالى به عباده من المصائب ويتلقاها بالرضا ظاهرا وباطنا ، فلا بد للنجاة من
الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل
بعضهم بعضا على سلوك طريقه ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات
التي لا قرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها .

وخلاصة ماسلف — إن الناس جميعا فى خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء:
الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ؛ فيعملون الخير
ويدعون إلى العمل به ، ولا يرحضهم عن الدعوة إليه ما يلافتونه من مشقة وبلاء .
والإنسان جميعه خسر مساعيه وضل مناهجه ، وصرف عمره فى غير مطالبه ،
فهو قد جاء إلى الأرض ليخلص نفسه من الرذائل ويتحلى بالفضائل ، حتى إذا رجع

إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحا ، وأمضى سلاحا ، لسكنه حين رجع إلى مقروء
 في عالم السموات بالموت لم يجد إلا نقصا يحيط به ، وجهلا يرديه ، فندم لإطاعة منه
 عاشوا في الدنيا مفكرين ، قآمنوا بأنبيائهم وصدقوا برسولهم ، وأحبوا بني جنسهم ،
 وأحسنوا إلى إخوانهم فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم ، وصاروا معهم متعاضدين
 متعاونين ، وصبروا على منازل بهم من الخدثان ، ورؤوا به من البهتان ، فهؤلاء
 في الدنيا يفوزون بما يريدون ، وفي الآخرة بالنعيم يفرحون .
 جعلنا الله في زمرة أولئك العاملين الذين تواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر .

سورة الهمة

هي مكية ، وآياتها تسع ، نزلت بعد سورة القيامة .

ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد
 الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله — ذكر هنا بعض صفات
 أهل الضلال .

أسباب نزول هذه السورة

قال عطاء والكلي : نزلت هذه السورة في الأحنس بن شريق ، كان يلجز
 الناس ويغتابهم وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم
 من ورائه ويطن فيه في وجهه .

وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت
 في أمية بن خلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) أَيْحَسِبُ
أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ؟ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا
عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

شرح المفردات

ويل : أى خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح ؛ والمراد به التنبيه
على قبح ماسيد كرم بعد من صفاتهم ، والهمزة الهمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس
ويظهر عيوبهم ويحقر أعمالهم ، تلذذا بالخط منهم وترفعا عنهم ؛ وأصل الهمز : الكسر
يقال همز كذا : أى كسره ؛ وأصل الهمز الطعن ، يقال لمزه بالرمح : أى طعنه ثم شاع
استعمالها فيما ذكرنا ، قال زياد الأعمى :

إذا لقيتُك عن شحطٍ تكاشرتنى وإن تغيبتُ كنتَ الهامزَ الهمزة

وعن مجاهد وعطاء : الهمزة الذى يغتاب ويطن فى وجه الرجل ، والهمزة :

الذى يغتاب من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان :

همزتك فاختصمتَ بذلِّ نفس بقافية تأجج كالشواظ

عدده : أى عدده مرة بعد أخرى شففا به ، أخذه : أى ضمن له الخلود فى الدنيا ،

والنبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير ، والحطمة : من الحطم وهو الكسر ؛ يقال

رجل حطمة إذا كان شديدا لا يبقى على شىء وفى أمثالهم : شرُّ الرعاء الحطمة : أى

الذى يحطم ماشيته ويكسرها بشدة سوقها قال :

قد نفها الليل بسواق حطمٍ ليس براعى إبلٍ ولا غنمٍ

ولا يجزار على ظهر وصم

والمراد بها النار ، لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ،
تطلع على الأفئدة : أى تعلق أوساط القلوب وتتشاها ، مؤصدة : أى مطبقة من
أوصدت الباب : أى أغلقتة قال :

نحن إلى أجيال مكة نأتقى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة
والعمد : واحداها عمود ، وممددة : أى مطولة من أول الباب إلى آخره .

الإيضاح

(ويل لسكل همزة لمزة) أى سخط وعذاب من الله لكل طعان فى الناس ،
أكل للحومهم ، مؤذ لهم فى غيبتهم أو فى حضورهم .
ثم ذكر سبب عيبه وطعنه فى الناس فقال :

(الذى جمع مالا وعدده) أى إن الذى دعاه إلى الخط من أقدار الناس والزراية
بهم هو جمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى ، شغفا به وتلذذا بإحصائه ، لأنه يرى أن
لا عز إلا به ، ولا شرف بغيره ، فهو كلما نظر إلى كثرة ماعنده ظن أنه بذلك قد
ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه
قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس ، لأن غروره أنساه الموت ، وأعنى بصيرته
عن النظر فى ماله ، والتأمل فى أحواله .

ثم بين خطاه فى ظنه فقال :

(يحسب أن ماله أخذه) أى يظن هذا الهماز العيب أن ماعنده من المال
قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن
أنه باق حيا أبدا الدهر ، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من
سئ الأعمال .

وبعد أن توعد من هذه صفاته بشديد العقاب ، وأردفه ذكر السبب الذي حمله على ارتكاب هذه الخلال المقنونة ، من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت ، أعقبه بتفصيل ما أعد له من هذا العذاب المحتوم فقال :

(كلا لينبذن في الحطمة) أى ازدجر أيها العيَّاب عما خيل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك ، بل الذى ينفع هو العلم وصالح العمل ، فإنك والله مطروح في النار لاحتالته ، لا يؤوبه لك ولا ينظر إليك .

وأثر عن عليّ كرم الله وجهه من عظة له : يا كميلُ هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون مابقي الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة . يريد أن خزان الأموال متموتون مكروهون عند الناس ، لأنهم لا يبالون منهم شيئاً ، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر مابقي على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم ، ويعترف من بحار فضلهم .

ثم أخذ يهول أمر هذه النار ويعظم شأنها فقال :

(وما أدراك ما الحطمة) أى إن هذه الحطمة مما لا تحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلا يعلم شأنها ، ولا يقف على كنهها ، إلا من أعدها لمن يستحقها .

ثم فسّر هذه الحطمة بعد إبهامها فقال :

(نار الله الموقدة) أى إنها النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، إذ هو الذى أنشأها وأعدّها لعقاب العصاة والمذنبين ، وفى وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبداً ، بل هى ملتهبة التهايبا لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها .

ثم وصفها بأوصاف تخالف نيران الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال :

(١) (التى تطلع على الأفئدة) أى إنها تنقلب على الأفئدة وتقرها ، فتدخل فى الأجراف حتى تصل إلى الصدور ، فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء البدن تألماً ، فإذا استولت عليه النار فأحرقته ، فقد بلغ العذاب بالإنسان غاية لا يقدرها قدرها .

وقد يكون المراد بالاطلاع المعرفة والعلم ، وكان هذه النار تدرك ما في أفئدة الناس يوم البعث ، فتميز العاصي عن المطيع ، والحبيث عن الطيب ، وتفرق بين من اجتروا السيئات في حياتهم الأولى ، ومن أحسنوا أعمالهم ، وإنا لننكل أمر ذلك إلى علام الغيوب .

وفي وصفها بالاطلاع على الأفئدة التي أودعت باطن الإنسان في أخفى مكان منه — إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولاً وأكثر تغلباً .

(٢) (إنها عليهم مؤصدة) أى إنها مطبقة عليهم لا يخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا ، فهم « كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا » .

(٣) (في عمد ممددة) قال مقاتل : إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شدت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح الله .

والمراد بذلك تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم ، والمبالغة في ذلك ليودع في قلوبهم اليأس من الخلاص منها .

وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كونه العمد من نار أو حديد ، ولا في أنها تمتد طولاً أو عرضاً ، ولا في أنها مشبهة لعمد الدنيا ، بل نكل أمر ذلك إلى الله ،

لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا ، ولم يأتنا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم يبين ذلك ، فالكلام فيه قول بلا علم ، واقتراء على الله الكذب .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويقينا شر النار المؤصدة ، بمنه وكرمه .

سورة الفيل

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الكافرين .
ومناسبتها لما قبلها — أنه بين فى السورة السابقة أن المال لا يغنى من الله شيئاً ؛ وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ
سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) .

شرح المفردات

الكيد : إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء ، والتضليل : التضييع والإبطال ، تقول ضللت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائما ، والطير : كل ما صار فى الهواء ، صغيراً كان أو كبيراً ، والأبابيل : الجماعات ، لاواحد له من لفظه ، والسجيل : الطين الذى تحجر ، والعصف : ورق الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح : فتأكله الماشية ، مأكول : أى أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

المعنى الجملى

ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ وَمَنْ تَبْلَغُهُ رِسَالَتُهُ بِعَمَلٍ عَظِيمٍ ذَالٍ عَلَى بَالِغِ قُدْرَتِهِ ، وَأَنَّ كُلَّ قُدْرَةٍ دُونَهَا فَهِيَ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهَا — ذَاكَ أَنَّ قَوْمًا أَرَادُوا أَنْ يَتَعَزَّزُوا بِفَيْلِهِمْ

ليغلبوا بعض عباده على أمرهم ، ويصلوا إليهم بشرّ وأذى ، فأهلكهم الله ، وردّ كيدهم ، وأبطل تدبيرهم ، بعد أن كانوا في ثقة بعدادهم وعددهم ولم يفدّم ذلك شيئاً .

قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لستين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم — أن قائدا حبشيا ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على السكينة المشرفة ويهدمها ، لينزع العرب من الحج إليها ، فتوجه بجيش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلاً أوفيلة كثيرة زيادة في الإرهاب والتخويف ، ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى « المَعَس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لخرابهم ، وإنما جاء لهدم البيت ، ففرّعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشى داء الجدري والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب ، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين ، وأصيب الحبشى ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة ، وأعملة أعملة ، حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟) أى ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية المائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فعلاّك حال قد جاءت على غير ما يعرف من

الأسباب والعلل ، إذ لم يعهد أن يحيى ، طير في جهة فيقصد قومادون قوم ، وهم معهم في جهة واحدة ، فذلك أمانة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين . وإنما عبر عن العلم بالروية ، للايماء إلى أن الخبر بهذا القصد متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو في قوّة الثبوت مع الوضوح — للعلم الناشئ عن الروية والمشاهدة . وخلاصة ذلك — إنك قد علمت ذلك علما واضحا لا لبس فيه ولا خفاء . ثم بين الحال التي وقع عليها فعله فقال :

(ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟) أى إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم . ثم فصل تدبيره في إبطال كيد أولئك القوم فقال :

(وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل) أى إنه تعالى أرسل عليهم فرقا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، فابتلوا بمرض الجدرى أو الحصبة حتى هلكوا .

وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذي تحمله الرياح ، فيماتق بأرجل هذا الطير ، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه ، فأثار فيه قروحا تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه .

ولاشك أن الذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ، فوقع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله ، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجسم الغفير من الناس ، فإذا أراد الله أن يهلك جيشا كثير المدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن مجرى الإلف والعادة ، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور ، وغرائب الأور ، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام التهر الإلهي ، وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة ، وتقتض مضجعه بعوضة ، ويؤذيه هبوب الريح .

قال الأستاذ الإمام : فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكته قومه قبل أن يدخل مكة ، وهي نعمة من الله غمّرها أهل حرّمه على وثنيّتهم ، حفظا لبيته حتى يرسل إليه من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ، ولا ذنب اقترفه اه .

(فجعلهم كعصف ما كؤل) أى فجعل هؤلاء القوم كعصف وقع فيه الأكل وهو السوس ، أو أكلت الدوابّ بعضه ، وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .
وصل ربنا على محمد الذى قصصت عليه مافيه العبرة لمن اذكر ، وأوحيت إليه مافيه مزدجر ، لمن تدبر واعتبر ، إنك أنت العليم الحكيم .

سورة قريش

هى مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة التين .

ومناسبتها لما قبلها — أن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ؛ فالأولى تضمنت إهلاك عدوم الذى جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزهم ؛ والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتثام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاءً فى تجارتهم ، وجلب الميرة لهم .

ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما بيسملة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

شرح المفردات

تقول ألفت الشيء إلفاً وإلفاً ، وآلفته إيلافاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع
الأنس به وعدم النفور منه ، وقريش : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ،
والرحلة : ارتحال القوم أى شدم الرجال للمسير ، أطعمهم : أى وسع لهم الزرق ،
ومهد لهم سبيله ، وآمنهم : أى جعلهم فى أمن من التعدى عليهم ، والتناول إلى
أموالهم وأنفسهم .

الإيضاح

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ : إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا ربّ هذا البيت)
أى فلتعبد قريش ربها شكراً له على أن جعلهم قوماً تجراً ذرى أسفار فى بلاد غير
ذات زرع ولا صرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التى
تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ؛ ورحلة فى الصيف إلى بلاد
الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونها فى أسفارهم ، لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمة ،
وولاية السكبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة
ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لاتقطع .

فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتوى بها قريش فى الأسفار ،
ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراكاً للرزق .

وهذا الإجلال الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام ، إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمة ، وزادها في نفوس العرب رَدُّ الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا ، بل قبل أن يدنوا منه . ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، وتقصت حرمة عندهم ، واستطالت الأيدي على سُقارهم لتفروا من تلك الرحلات ، فقلَّت وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم في عُمر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

(فليعبدوا رب هذا البيت) الذي حماه من الحبشة وغيرهم ، ومكَّن منزلته في النفوس ، وكان من الحق أن يفرده بالتعظيم والإجلال .
ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

(الذي أطعمهم من جوع) أي إنه هو الذي أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله ، ولولاه لكانوا في جوع وضنك عيش .

(وآمنهم من خوف) أي وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التمدي والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فحاشوا في ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت ، فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟ مع أنه لا فضل لأحد من يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق ، وكفاية الحاجة .

اللهم ألهم قلوبنا الشكر على نعمك التي تترى علينا ، وزدنا بسطة في العلم والرزق .

سورة الماعون

هى مكية ، وآياتها سبع ، نزلت بعد سورة التكوير .
 ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه لما قال فى السورة السابقة : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » ذم فى هذه من لم
 يحض على طعام المسكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » وهنا ذم من
 سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويحجدون
 الجزاء ، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢)
 وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ
 صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

شرح المفردات

أرأيت : أى هل عرفت وعلمت ؛ والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرف
 ما يذكر بعده مع تضمنه التمتع منه ، كما تقول : أرأيت فلانا ماذا صنع ، وأرأيت
 فلانا كيف عرض نفسه للمخاطر - أنت فى كل ذلك تريد بعث الخطاب على
 التمتع مما فعل ، والدين : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التى
 لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها ، وإنما يجد آثارها فى السكون باعثة على الإذعان

والتصديق ، كوجود الله ووحدانيتها ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء ، يدع اليتيم : أى يدفعه ويزجره زجرا عنيفا كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا » يحض : أى يحث ويدعو الناس إلى ذلك ، يراءون : أى يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ؛ وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة فى قلوب الناس ، ويكون فعل ذلك على ضروب :

- (١) بتحسين السمات مع إرادة الجاه وثناء الناس .
 - (٢) بلبس الثياب القصار أو الخشنه ليأخذ بذلك هيئة الزهاد فى الدنيا .
 - (٣) بإظهار السخط على الدنيا ، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير .
 - (٤) بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له .
- والماعون : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالفقير والدلو والفأس .

وقال جار الله : ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان قريضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام : « ولا غمة فى فرائض الله » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا فحتمه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيئتى عليه بالصلاح ؛ وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؟ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمة .

على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرياء أخفى من ديب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود » اهـ . المسح : كسام خشن من صوف يلبسه الزهاد .

الإيضاح

(أرايت الذي يكذب بالدين) أى هل عرفت ذلك الذى يكذب بما أوراها إدراكه من الأمور الإلهية ، والشئون القبيية ، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، فإن كنت لاتعرفه بذاته ، فاعرفه بصفاته وهى :

(١) (فذلك الذى يدع اليتيم) أى فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة ، احتقارا لشأنه وتكبيرا عليه .
(٢) (ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يبحث غيره على إطعامه ، وإذا كان لا يبحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه ، فهو لا يفعله بالأولى .

وفى هذا توجيه لأنظارنا إلى أنا إذا لم نستطع مساعدة المسكين كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك كما تفعل جماعات الخير : «الجمعيات الخيرية» .
وقصارى ما سلف — إن المكذب بالدين صفتين : أولاها أن يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم . وثانيتها أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج ، أو يبخل بسعيه لدى الأغنياء ، ليساعدوا أهل الحاجة من تحقق مجرم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة ، ويقوم لهم بكفاف العيش .

وسواء أكان المحقر للحقوق ، البخيل بالمال والسعى لدى غيره مضلما أو غير مصلح فهو فى صف المكذبين ، ولا تخرجه صلاته منهم ، لأن الصدق بشئ ، لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدق به ، ولو صدق بالدين حقا لصار منكسرا متواضعا لا يتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم ؛ فمن لم يفعل شيئا من ذلك فهو مرء فى عمله ، كاذب فى دعواه ، ومن ثم قال سبحانه :
(فويل للضالين : الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى فمذاب لمن يؤدى الصلاة بحسنه ولسانه من غير أن يكون لها أثر فى نفسه ، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التى

شرعت لأجلها ، لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان ، وتفعله الجوارح ، فيركع وهو لاهٍ عن ركوعه ، ويسجد وهو لاهٍ عن سجوده ، ويكبر وهو لاهٍ ما يقول ؛ وإنما هي حركات اعتادها ، وكلمات حفظها ، لا تدرك نفسه معناها ، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها .

(الذين هم يراون) أى إنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر ما يرى الناس ، دون أن تستشعر قلوبهم بها ، أو تصل إلى معرفة حِكْمِها وأسرارها .
(ويمنعون الماعون) أى ويمنعون مالم تجر العادة بمنعه عما يسأله الفقير والفتى ، ويستب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق كالقدر والفأس ، والتدوم ونحو ذلك .

قال الأستاذ الإمام : فأولئك الذين يصلون ، ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى للناس ، مما لا يمكنهم بذل شيء من مالهم ، ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم ، أو نقصا يبلغ مجاهم ، ثم يمنعون ماعونهم ، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين ، وتوفيز ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمانينتهم - لا تنفعهم صلاتهم ، ولا تخرجهم عن حد المكذبين بالدين ، لافرق بين من وسما أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره ، فإن حكم الله واحد ، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة ، التى لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع .

فخاصة المصدق بالدين التى تميزه عن سواء من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة ، وحب الأثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ، ومنع المعروف عن يستحقه من الناس .

فهل للمسلمين الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقبسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون فى هذه السورة الشريفة ؟
ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين ؟ ولْيَقْلَعُوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التى لا أثر لها إلا فى ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذى يسمنونه صياحما

ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم ، وبذاذة ألسنتهم ، وضياح أوقاتهم في اللهو والبطالة ، ويرجعوا إلى الحق من دينهم ، فيقيموا الصلاة ، ويحيوا صورتها بالخشوع للعمل الأعلى ، فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد الله يلتمسون رضاه في رعاية حقوقه بما يراه ، ويجعلوا من الصوم مؤدبا للشهوة ، ومهذبا للرغبة ، رادعا للنفس عن الأثرة ، فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم ، ثم يؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ولا يبخلون بالعمونة فيما ينفع الخاصة والعامة اه والله أعلم .

سورة الكوثر

هي مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة العاديات .
ومناسبتها لما قبلها - أنه وصف في الأولى الذي يكذب بالدين بأمر أربع :
البخل . الإعراض عن الصلاة . الرياء . منع العمونة - وهنا وصف ما منحته رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، فذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ،
والحرص على الصلاة ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء .

أسباب نزول هذه السورة

كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويلمزونه بأمر :

(١) أنه إنما اتبعه الضعفاء ولم يتبعه السادة الكبراء ، ولو كان ما جاء به الدين صحيحا لكان أنصاره من ذوى الرأي والمكانة بين عشائرم ، وهم ليسوا ببدع في هذه المقالة ، فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا : «وَمَا تَرَىٰ كَأَنَّكَ إِلَّا الْبَدِينُ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ ، وَمَا تَرَىٰ أَسْمُ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» .

وقد جرت سنة الله في خلقه أن يسرع في إجابة دعوة الرسل الضعفاء ، من قبل أنهم لا يملكون مالا فيخافوا أن يضيع في سبيل الدعوة الجديدة ، ولا جاهها ونفوذا فيخافوا أن يضيعا أمام الجاه الذي منحه صاحب الدعوة - وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا في دين الله وهم له كارهون ، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسول الله ، ويأخذون في انتقاصهم ، وكيل التهم لهم تهمة بعد تهمة ، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشد أزرهم .

وعلى هذا السنن سار أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف عنه ساداتهم وكبرائهم حسدا له ولقومه الأدنين .

(٢) إنهم كانوا إذا رأوا أبناءهم يموتون ، يقولون : انقطع ذكر محمد وصار أبترا ، يحسبون ذلك عيبا فيميزونه به ويحاولون تغيير الناس عن اتباعه .

(٣) إنهم كانوا إذا رأوا شدة نزك بالمؤمنين طاروا بها فرحا وانتظروا أن تدول الدولة عليهم وتذهب ریحهم ، فتمود إليهم مكاتهم التي زعزعتها الدين الجديد . فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن ما يرجف به المشركون وهم لاحقية له ، ولتمحص نفوس الذين لم تضل قناتهم ، ولترد كيد المشركين في نحورهم ، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لاجمالة ، وأن أتباعه هم المفلحون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ

هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

شرح المفردات

الكوثر : المفرط في الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب
ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ويقال للرجل الكثير العطاء هو كوثر ، قال الكميت
الأسدي :

وأنت كثير يابن مروان طيبٌ وكان أبوك ابن المعائل كوثرا

والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ،
والشأن : المبعوض ، وأصل الأبتز : الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا ما لا يبقى
له ذكر ولا يدوم له أثر - شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب
الحيوان من حيث إنه يقبمه وهو زينة له ، وشبه الحرمان منه ببتز الذنب وقطعه .

الإيضاح

(إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك من المواهب الشيء الكثير الذى
يعجز عن بلوغه العد ، ومنحك من الفضائل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته ،
وإن استخف به أعداؤك واستقلوه ، فإتأ ذلك من فساد عقولهم ، وضعف إدراكهم .

(فصل لربك وانحر) أى اجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك
وما هو نسك لك لله أيضا ، فإنه هو الذى ربك وأسبغ عليك نعمة دون سواه كما
قال تعالى آمراه : « قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

وبعد أن بشر رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على
ذلك ، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهورا ذليلا ، أعقبه بقوله :

(إن شائتك هو الأبتز) أى إن مبعضك كائنا من كان هو المقطوع ذكره من

خيرى الدنيا والآخرة ، وأما أنت فستبقى ذريتك ، ويبقى حسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة .

وشأنوه ما كانوا يعرضونه لشخصه ، لأنه كان محبباً إلى نفوسهم ، بل كانوا يفتنون ما جاء به من الهدى والحكمة ، لأنه سقاه أجلامهم ، وعاب معبوداتهم ، ونادى بفراق ما ألوه ونشئوا عليه .

وقد حقق الله في شأنه من العرب وغيرهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ما يستحقونه من الخذلان والخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر : أما النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اهتدى بهديه فإن الله رفع منزلتهم فوق كل منزلة ، وجعل كلهم هي الامايا .

قال الحسن رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبتى : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك اهـ .

وصل ربنا على نبيك محمد الذى أعليت ذكره ، وأذلت شأنه ، صلاة تبقى مابق الدهر .

سورة الكافرون

هي مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الماعون . ومناسبتها لما قبلها — أنه في السورة السابقة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة ، بإخلاص العبادة له ، وفي هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف .

أسباب نزول السورة

روى أن الوليد بن المغيرة والماص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطالب وأمية بن خلف في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : هلم يا محمد فاتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركك في أمرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ، وتعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظاً منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كفت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت حظك منه ، فقال : معاذ الله أن نشرك به غيره ، وأنزل الله رداً على هؤلاء هذه السورة ، ففدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه اللأمن قريش ، فقام على رؤوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك ، وظفّقوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

الإيضاح

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) أي قل لهم : إن الإله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده ، لأنكم تعبدون من يتخذ الشفاء أو الولد ، أو يتجلى في شخص أو يتجلى في صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون ، وأنا أعبد إلهاً لا مثيل له ولا نداء ، وليس له ولد ولا صاحبة ، ولا يحل في جسم ، ولا تدرك

كنه العقول ، ولا تحويه الأمكنة ، ولا تمر به الأزمنة ، ولا يتقرب إليه بالشفعاء ، ولا تقدم إليه الوسائل .

وعلى الجملة فبين ماتعبدون وما أعبد ، فارق عظيم ، وبون شاسع ، فأتم تصفون معبودكم بصفت لا يحمل بمعبودى أن يتصف بها .

(ولا أتم عابدون ما أعبد) أى إنكم لستم بعايدين إلهى الذى أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلهكم ، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال .

وبعد أن نفي الاختلاف فى المعبود نفي الاختلاف فى العبادة ، من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التى يؤدونها أمام شفعاثهم ، أو فى المعابد التى أقاموها لها أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم فى شىء فقال :

(ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنا بعايد عبادتكم ، ولا أتم عابدون عبادتى قاله أبو مسلم الأصفهاني .

وخالصة ماسلف — الاختلاف التام فى المعبود ، والاختلاف البين فى العبادة فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى منزه عن الندب والنظير ، متعال عن الظهور فى شخص معين ، وعن المحاباة لشعب أو واحد بعينه ، والذى تعبدونه أتم على خلاف ذلك .

كما أن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(لكم دينكم ولى دين) أى لكم جزاؤكم على أعمالكم ولى جزائى على عملى كما جاء فى قوله تعالى : «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» .

وصل ربنا على محمد الذى جعل الدين لك خالصا ، وعلى آله وصحبه أجمعين

سورة النصر

هي مدنية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة التوبة .
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ، ودين الكفار الذي يعكفون عليه — أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان العمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

شرح المفردات

النصر: العون؛ يقال نصره على عدوه ينصره نصرًا : أى أعانه ، ونصر العيث الأرض : إذا أعان على إظهار نباتها ومنع من قحطها ، قال شاعرهم :

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزى بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والفتح : الفصل بينه وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ، والأفواج : واحدهم فوج ؛ وهو الجماعة والطائفة ، واستغفره : أى أسأله أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك ، توابا : أى كثير القبول لتوبة عباده .

المعنى الجملى

كان للمؤمنون أيام قتلهم وفقرهم وكثرة عدد عدوهم وقوته ، يمر الضجر بنفوسهم ويُقبض مضاجعهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره ،

لتكذيب قومه له على وضوح الحق وسطوع البرهان . كما قال تعالى مخاطباً رسوله :
 « فاعْلَمَكَ بِأَخِيعَ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال :
 « فاعْلَمَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ
 عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقال :
 « قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ . فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
 بآيَاتِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ »

وفي هذا القلق والضجر استنباطاً لنصر الله للحق الذي بعث به نبيه ، بل فيه
 سهو عن وعد الله بتأييد دينه ، كما جاء في قوله : « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ »

هذا الضجر ليس بنقص يعاب به النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الله يعدهم
 على أقرب عبادته إليه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد يراه النبي
 صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة شدته ذنباً يتوب إلى الله
 منه ويستغفره ، ومن ثم ورد الأمر الإلهي بالاستغفار مما كان منه من حزن وخبير
 في أوقات الشدة حين يجيء الفتح والنصر .

الإيضاح

(إذا جاء نصر الله والفتح) أى إذا رأيت نصر الله لدين الحق ، وانهمز أهل
 الشرك وخذلانهم ، وفتح الله بينك وبين قومك ، يجعل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز
 أمرك ، وإعلاء كلمتك .

(ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أى ورأيت الناس يدخلون
 في دينك ، وينضون تحت لوائك جماعات لأفراداً كما كان في بدء أمرك
 وقت الشدة .

(فسبح بحمد ربك) أى إذا تم لك كل ذلك فتره ربك وقدسه عن أن يهمل الحق ، ويدعه للباطل يتغلب عليه ، وعن أن يخلف وعده الذى وعدك به ، بأن يجعل كلمتك العليا ، وكلمة الذين كذبوا السفلى ، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون .

ولم يكن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم ، وشكره على ما منحك من خير ، والثناء عليه بما هو له أهل ، فإنه هو القادر الذى لا يغلبه غالب ، والحكيم الذى إذا أهمل الكافرين ، فلن يضيع أجر العاملين .

(واستغفره) أى واسأله أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر .

والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليبها على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد ، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك الكمال ، ومن ثم أمره به ، وهكذا يحدث فى نفوس الكملة من أصحابه وأتباعه ما يقارب ذلك ، والله يتقبله منهم .
ثم علل طلب الاستغفار بقوله :

(إنه كان توابا) أى إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده ، لأنه يرى النفوس بالحن ، فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدّد عزيمتها بحسن الوعد ، ولا يزال بها حتى تبلغ مرتبة الكمال .

وخلاصة ما سلف — إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فقد زال الخوف ، فعليك أن تسبح ربك وتشكره وتزيع عما كان من خواطرها النفس وقت الشدة ، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس الخالصين من عباده ماداموا على تلك الكثرة ، ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة .

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم من هذا أن الأمر قد تم ، ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نُعيتُ إليه نفسه .

قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزلت « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدها ثمانين يوماً ، ثم نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزلت : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ، ثم نزلت : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً .

وصلَّ وسلَّم ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا وربطوا في سبيل الله .

سورة المسد

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفتح .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء في الدنيا ، والثواب الجزيل في العقبى . وهنا ذكر أن عقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة .

أسباب نزول هذه السورة

روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألهدنا جمعتنا ؟ تباً لك 11 وفى رواية : إنه قام ينفخ يديه ويقول : تباً لك سائر اليوم ، ألهدنا جمعتنا ؟ فأنزل الله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)
 سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَإِزْرًا لَّهُ حَمَالَةَ الْخَطْبِ (٤) فِي جِيدِهَا
 حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

شرح المفردات

التبّاب : الهلاك والخسران قال تعالى : « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ »
 وأبو لهب : أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزّي بن عبد المطلب ،
 وتبّ : أى قد تبّ وخسر ، يصلّى نارا : أى يجد حرها ويذوقه ، ولهب النار : ما يسطع
 منها عند اشتعالها وتوقدها ، والجيد : العنق ، والمسد : الليف .

الايضاح

(تبّت يدا أبي لهب) هذا دعاء عليه بالخسران والهلاك ، ونسب الهلاك إلى
 اليدين ، لأنهما آلة العمل والبطش ، فإذا هلكتا وخسرتا كان الشخص كأنه
 معدوم هالك .

(وتبّ) أى وقد تب وهلك .

والجملة الأخرى دعاء عليه بالخسران والهلاك ، والجملة الثانية إخبار من الله بأن
 هذا الدعاء قد حصل ، وقد خسر الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ما كان يعترّبه في الدنيا من مال وجاه لم يغن عنه من الله شيئا يوم
 القيامة فقال :

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم يفده حينئذ ماله ولا عمله الذى كان يأتيه
 في الدنيا من معادته رسول الله طلبيا للعلو والظهور ، فكما أن ذلك لم يجده شيئا

في الدنيا ، إذ لم يتغلب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل - لم يفده في الآخرة ، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار .

وقد كان أبولهب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، شديد التحريض عليه ، شديد الصدّ عنه .

روى أحمد عن ربيعة بن عباد قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : قولوا لا إله إلا الله فقلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبولهب » .

ومن ذلك تعلم أن أبالهب كان يصدّ عن الحق ، وينفّر عن اتباعه ، وذاع عنه تكذيبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتحديده واتباع خطواته لدحض دعوته ، والخط من شأن دينه وما جاء به .

(سيصلى نارا ذات لهب) أى سيذوق حر النار ويعذب بلظاها .

وخلاصة ماسلف - خسر أبولهب وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسعاه للصد عن دين الله ، ولم يقن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جدّة واجتهاده في ذلك ، فان الله أعلى كفة رسوله ، ونشر دعوته ، وأذاع ذكره ، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر وهيب ، وإحراق شديد ، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ، ودحض عمله ؛ وستعذب معه امرأته التى كانت تعاونه على كفره وجحده ، وكانت عضده في مشاكة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذائه ، وكانت تمشى بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة كما قال :

(وامرأته حمالة الحطب) أى وستعذب أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعى بالنميمة إطفاء لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد

بين الناس ، هو يحمل الحطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلات .
وقيل إنها كانت تحمل حُزَم الشوك والحسك والسعدان ، وتنتثرها بالليل
في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائه .

وقد زاد سينحانه في تبشيع عملها وتقبيح صورته فقال :

(في جيدها جبل من مسد) أى في عنقها جبل مما مُسِد من الجبال أى أحكم
قتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها
كبعض الخطأيات المتهنات احتقارا لها ، واحتقارا لبعلمها ، حين اختارت
ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها — إنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس
وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الحطب التى في عنقها جبل خشن تشد به
مأخذه إلى عنقها حتى تستقل به ، وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب
وهى على تلك الحال .

ويرى بعض العلماء أن المراد ببيان حالها وهى في نار جهنم ، إذ تكون على
الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاء لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ؛ فهى لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال فى جيدها جبل
من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه
قال : كانت أم جميل قلادة فاخرة فقالت : لأنفقتها فى عداوة محمد ، فأعقبت الله
جبلًا فى جيدها من مسد النار .

نسأل الله الوقاية من النار ، والبعد من الصد عن دينه وكتابه ، إنه

هو السميع العليم .

سورة الإخلاص

هي مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

أسباب نزولها

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر ابن الطميلة فقال له عنهم : شققت عصانا (فرقت كلمتنا) ، وسبيت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجنا كما ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له : بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أم من فضة ؟ فأزل الله هذه السورة .

المعنى الجملي

هذه السورة تضمنت أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وهي توحيد الله وتنزيهه ، وتقرير الحدود العامة للأعمال ، ببيان الصالحات وما يقابها ، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملافة الجزاء من ثواب وعقاب ، وقد ورد في الخبر : « إنها تعدل ثلث القرآن » لأن من عرف معناها ، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر ، علم أن ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) .

شرح المفردات

أحد: أى واحد لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية ولا من أصول متعددة غير مادية ، والضمد : الذى يقصد فى الحاجات كما قال :
لقد بكر الناعى بخير بنى أسد
بعمر بن مسعود وبالسيد الضمد
والكفاء والمكافى : النظير فى العمل والقدرة .

الإيضاح

(قل هو الله أحد) أى قل لمن سألك عن صفة ربك : الله هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد ، لأن التعدد فى الذات مستلزم لانتقار المجموع إلى تلك الأجزاء والله لا يفتقر إلى شىء .

(الله الضمد) أى هو الله الذى يقصده العباد ويتوجهون إليه ، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع ، وبهذا أبطال عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن رؤسائهم منزلة عند ربهم يبالغون بها التوسط لديهم فى نيل مبتغاهم ، فيلجئون إليهم أحياء وأمواتا ، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين ، كما يخشعون لله أو أشد خشية .

(لم يلد) أى تنزه ربنا عن أن يكون له ولد ، وفى هذا رد لمزاعم مشركى العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، ولمزاعم النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، اقرأ إن شئت قوله تعالى : « فَاَسْتَفْتِيهِمْ إِنْ رَبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ حَافِظِينَ الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

(ولم يولد) لأن ذلك يقتضى مجانسته لسواه ، وسبق العدم قبل الوجود —

تنزه ربنا عن ذلك

وأثر عن ابن عباس أنه قال : لم يلد كما ولدت مريم ، ولم يولد كما وُلد عيسى وعزير ، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله :

(ولم يكن له كفوا أحد) أى ليس له نِدٌّ ولا مماثل ، وفي هذا نفي لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نِدًّا فى أفعاله كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله .

والخلاصة — إن السورة تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفي الله عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : « الله أحد » ونفي عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله : « الله الصمد » ونفي عن نفسه الحانسة والمشابهة لشيء بقوله : « لم يلد » ونفي عن نفسه الحدوث والأولية بقوله : « ولم يولد » ونفي عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

سورة الفلق

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ حَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

شرح المفردات

أعوذ : أى ألبأ ، والفلق : شق الشيء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشيء فانفلق كما قال تعالى : « فَأَلِقُ الْحَبَّ وَالنَّوَى » والشيء المفلوق يسمى فلقًا ،

والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التي تنفلق عن النبات ، والجبال التي تنفلق عن عيون الماء ، والسحاب التي تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التي تنفلق عن الأولاد ، والفاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقب : دخل ظلامه في كل شيء ، ويقال وقبت الشمس إذا غابت ، والنفائات : واحدهم نفائة كملامة ، من النفث وهو النفث من ريق يخرج من الفم ، والعقد : واحدها عقدة ، والحاسد : هو الذى يتعمى زوال نعمة الحسود .

الإيضاح

(قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق) أى قل : أستعيذ برب المخلوقات ، وبمبدع الكائنات ، من كل أذى وشر يصيبني من مخلوق من مخلوقاته طرّاً . ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منهم فطلب إليه التعمود من شرهم ودفع أذاهم ، وهم :

(١) (ومن شر غاسق إذا وقب) أى ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء بظلامه ، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً بعمقاً على الرهبة - إلى أنه ستار يختفى في ظلامه ذوو الإجمام إذا قصدوك بالأذى - إلى أنه عون لأعدائك عليك .

(٢) (ومن شر النفاثات فى العقد) أى ومن شر الثمامين الذين يقطعون روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، وقد شبه عملهم بالنفث ، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة ، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة ، كما سمى الارتباط بين الزوجين : (عُقْدَةُ النِّكَاحِ) .

فالتمية تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضرباً من السحر ، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها ، فالإنام يأتى لك بكلام يشبه الصدق ، فيصعب عليك تكذيبه ، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد

أن يخل عقدة الحبة بين المرء وزوجه ، إذ يقول كلاماً ويعقد عقدة وينفث فيها ، ثم يحلها إيهاماً للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين .

قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا هاهنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره لمبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفي صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام - ماس بالعقل آخذ بالروح ، فهو مما يصدق قول المشركين فيه : « **إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** » .

والذي يجب علينا اعتقاده أن القرآن المتواتر جاء بنفي السحر عنه عليه الصلاة والسلام ، حيث نسب القول بإثبات حصره له إلى المشركين ووجههم على ذلك . والحديث على فرض صحته من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لا يؤخذ فيها إلا باليقين ، ونفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم لا يستلزم نفي السحر مطلقاً ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون ، ولكن من الحال أن يصيبه صلى الله عليه وسلم ، لأن الله عصمه منه .

إلى أن هذه السورة مكية في قول عطاء والحسن وجابر ، وما يزعونه من السحر إنما وقع بالمدينة ، فهذا مما يضعف الاحتجاج بالحديث ، ويضعف التسليم بصحته .

وعلى الجملة فعلينا أن نأخذ بنص الكتاب ، ونفوض الأمر في الحديث ، ولا نحكمه في عقيدتنا .

(٣) (ومن شر حاسد إذا حسد) أي واستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أفعد حسده ، بالسعي والجِدِّ في إزالة نعمة من يحسده ، فهو يُعْمَلُ الحيلة ، وينصب

شبابه ، لإيقاع المحسود في الضرر ، بأدق الوسائل ، ولا يمكن إرضاءه ،
ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره ، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة ، وليس
في الطوق دفع كيده ، ورد عواده ، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخلاق الأكرم ،
فهو القادر على رد كيده ، ودفع أذاه ، وإحباط سعيه .
نسألك اللهم وأنت الوزير والنصير ، أن تقينا أذى الحاسدين ، وتدفع عنا كيد
الكافرين ، إنك أنت الملجأ والمعين .

سورة الناس

هي مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الفلق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٤) مِنْ
شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنْ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

شرح المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنمهم ومصراعى شؤونهم ، الوسواس : أى
الموسوس الذى يلتقى حديث السوء فى النفس ، والخناس : من الخنوس وهو الرجوع
والاختفاء ، والجنة : واحدهم جني ، كإنس وإنسي .

الإيضاح

(قل أعوذ برب الناس) أمر رسوله أن يستعين بمن يربى الناس بنعمه ،
ويؤدبهم بنقمة .

(ملك الناس) أى مالكمهم ومدبر أمورهم ، رواضع الشرائع والأحكام التى فيها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(إله الناس) أى المستولى على قلوبهم بعظمته ، وهم لا يحيطون بكنه سلطانه بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم ، ولا يدرون من أى جانب يأتيهم ، ولا كيف يسلط عليهم .

وإنما قدم الربوبية ، لأنها من أوائل نعم الله على عباده ، ثم تبنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يضير عاقلاً مفكراً ، ثم تلك بذكر الألوهية ، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة ، وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهو رب كل شيء ومالك كل شيء وإله كل شيء من قبيل أن الناس هم الذين أخطئوا فى صفاته وضلوا فيها عن الطريق السوى ، فجعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم ، ويلجئون إليهم فى دفع النقم ، ويلقبونهم بالشفعاء ، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ، ويرسمون لهم حدود أعمالهم .

وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » وقوله : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ »

والخلاصة — إنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم ، وهم أناس مفكرون ، ومالكهم وهم كذلك ، وإلههم وهم هكذا ، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر .

(من شر الوسواس الخفاس) أى الجأ إليك رب الخلق وإلههم ومعبودهم أن ننجينا من شر الشيطان الوسوس الكثير الخنوس والاختفاء ، لأنه يأتي من ناحية

الباطل ، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير ، إذا انجرت مع وسوسته ، وانسأقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال . وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عند إلقاءها .

وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس ، يذهب هباء إذا تنهت النفس لأوامر الشرع ، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ وبعثك على فعل سوء ثم ذكرته بأوامر الدين يخنس ويمسك عن التول ، إلى أن تسفح له فرصة أخرى . وقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

(الذي يسوس في صدور الناس من الجنة والناس) أي إن هذا الوسواس الخناس الذي يسوس في صدور البشر ، قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما جاء في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فشياطين الجن قد يسوس تارة ويخنس أخرى ، وشيطان الإنس كذلك ، فكثيرا ما يريك أنه ناصح شفيق ، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر في حديثه وبالغ فيه ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » رواه أبو هريرة وخرجه مسلم .

وإنما جعل الوسوسة في الصدور من قبل أنه عهد في كلام العرب أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك في صدرك ، ويحيش في صدري كذا ، ويختلج ذلك بخاطري ، وما الشك إلا في نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل تكون في المنخ ، ويظهر لها أثر في حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر وانبساطه .

قال الأستاذ الإمام الموسوسون قسمان :

(١) قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لانعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا

أثر ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهي قوة نازعة إلى الشر ، ويحدث
منها في نفسه خواطر سوء .

(٢) قسم الناس ، ووسوستهم ما شاهدته ونراه بأعيننا ، وسمعته بأذاننا .
وما أوردوه في خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو على القلب
ونحو ذلك ؛ فهو من قبيل التمثيل والتصوير اه ملخصا .
وقد بدئت السورة برب الناس ، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغواء
الشيطان ووسوستهم .

وقد أرشد في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه ، كما أرشد إليها
في الفاتحة ، للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده ، والإخلاص له
في القول والعمل ، والالتجاء فيما لا قدرة لنا على دفعه .

* * *

اللهم اجعلنا من الخالصين في أعمالنا ، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن ،
وأبعد عنا شر الموسوسين ، وقنا عذاب جهنم ، ولا تفضحنا يوم العرض .
وصل ربنا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الذين زادوا عن دينك ،
يقدر ما غرست في قلوبهم من برء اليقين ، وأثابجت صدورهم بمحبة هذا الدين .

خاتمة التفسير

حمداً لك اللهم على نعمائك ، وشكراً لك على جزيل آلائك ، سبحانك رب
وفقتني لتفسير كتابك الكريم ، وبيان أسرارهِ ومغازيه لجمهرة المسلمين ، بعد أن
كانت تقوم أمامهم عقبات تلوعقات ؛ فمن مصطلحات العلوم لا تستسيغها
إلا طوائف ممن تخصصوا لدرسها ، ومن تفسير لنظريات طبية أوفلكية دلت أبحاث
العلماء المحدثين على أن تفسير العلماء القدامى لها كان مجانفاً للحقائق التي أثبتتها
العلم الحديث ، ومن قصص دون في كتب التفسير يفوزه الدليل النقلى الصحيح ،
ولا يوافق على صدقه العقل الرجيح ، ولا سيما قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة ،
وبدء التكوين ، وخلق السموات والأرض .

وكم سهرت الليالى الطوال فى أيام القرّ ، وإبان الحرّ ، لا تؤنسى إلا معونة الله
وجميل توفيقه ، وما أشعر به من لذة تخفف عنى ما أقتض ظهري .

وحيثما كنت أحس بسأم من العمل المضى — آئنس أن نفحة من روح الله
يهب نسيمها على قلبى ، فأنشط للعمل ، وأدأب على المضى قدماً ، لمواصلة الدرس
والتأليف .

وهكذا كانت تمر الليالى والأيام ، فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحاً ومروراً
بمواصلة العمل . وقد أعاننى الله على إتمامه بعد سبع سنين دائماً العمل ليل نهار ،
صباح مساء .

وكان مسك الختام ، وإنجاز التفسير فى سلخ ذى الحجة من سنة ١٣٦٥
خمس وستين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان بمدينة حلوان من أرباض
القاهرة قاعدة الديار المصرية .

والله الحمد فى الآخرة والأولى ، وإليه المرجع والمآب ؟
المؤلف

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن أنزل القرآن تبيانا للناس وهدى وموعظة للمتقين ، وأرسل سيدنا محمدا بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه مصاييح الهدى وترجمان القرآن الذي هو حجة الله على الناس أجمعين .

أتى رب العالمين فيه بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة على انفراده سبحانه بالألوهية ، واختصاصه جل ذكره بالمعبودية . دمع به الباطل وأزهقه ، وزيف به عقائد العرب وبين لهم النجدين ، فنههم من مال إلى الإسلام ، ومنهم من خضع بالسيف والسنان . ولقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، وبين مراميه وفسر بعض آياته ، واقتمدى به الصحابة ومن بعدهم في ذلك .

ولله در حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ «أحمد مصطفى المراغى بك» حيث خاض لجة بحر علم تفسير القرآن ، فشرح الألفاظ المفردة التي يصعب على القارى فهمها لأول وهلة ، ثم تلاها بالمعنى المراد من الآيات في عبارة مختصرة ، ثم ثلثها بإيضاح الدمانى إيضاحا شاملا شافيا ، مع تجنب القصص الإسرائيلية المدسوسة والحرفات الدخيلة على هذا العلم النفيس ، فذكر منها الصريح والقل الصحيح . اهتدى إلى مالم يهتدى إليه الفحول من متقدميه ، واستدل بأحاديث الرسول في بعض المواضع ، وبأشعار العرب ، وبأقوال أهل اللغة والعلماء الوثوق بعلمهم وتعلمهم ، فهو كما قال القائل :

إني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وقد قام بطبعه طبعا متقنا ونشره بين الأنام السادة النبلاء من نشروا كتب الجهابذة الأعلام في أنحاء المعمورة ، أصحاب :

[شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر]

فله درهم حيث قدموه لجمهور القراء بهذا الشكل البديع مع الاعتناء بتصحيحه بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف برئاسة الأستاذ الشيخ «أحمد سعد على» وإشراف صاحب الفضيلة الشيخ «على عبد الصباع» شيخ القراء والمقارئ بالديار المصرية .

القااهرة في يوم الخميس } ٢٩ من ربيع الثاني ١٣٦٩ هـ
 } ١٦ من فبراير ١٩٥٠ م

مدير الطبعة

رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ الطبعة

محمد أمين عمران

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	كان المشركون كثيرا ما يتحدثون في شأن البعث والحساب فنزلت سورة عم .
٨	للظلمة فوائد وللنور فوائد .
٩	في الشمس سر الحياة .
١١	أمر الكائنات في يوم الفصل على غير مانع .
١٤	ذكر جرائم الكفار التي استحقوا عليها العذاب .
١٧	التمتع بالنساء في الآخرة يكون على نهج يشاكل العالم الأخرى .
١٩	الملائكة مخلوقات غيبية تصدق بما جاء في الكتاب من أوصافها .
٢٠	في يوم القيامة تتجلى للمرء أعماله التي كانت في حياته الأولى .
٢٣	الإقسام ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم يكون لأحد أمرين .
٢٥	استبعد المشركون أمر البعث لأسباب ثلاثة .
٢٧	قصص موسى مع فرعون طاغية مصر .
٣٠	البعث حين إذا قيس بخلق السموات والأرض .
٣١	تعاقب الليل والنهار يهيئ الأرض للسكنى .
٣٣	يوم القيامة يتذكر كل امرئ ما عمل في الدنيا .
٣٥	كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فأمره أن يقول لهم : علمها عند ربى .
٣٧	يوم القيامة يظن المشركون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية أو ضحاها .

الصفحة	المبحث
٣٩	عتاب الله لنبيه على الإعراض عن هذا الأعمى .
٤٢	الهداية تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل .
٤٧	آيات المنبئة في الآفاق والأنفس .
٤٩	ذكر بعض أهوال يوم القيامة التي توجب الفرع .
٥٠	الناس فريقان : سعداء وأشقياء .
٥٣	حين تقع أحداث القيامة تعلم كل نفس ماقدّمت من عمل .
٥٥	افتنّ العرب في وأد البنات .
٥٦	لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان عن قلب مليء بالإيمان .
٥٩	أوصاف جبريل عليه السلام .
٦٠	صفة النبي عليه الصلاة والسلام .
٦١	على مشيئة المكلف تتوقف الهداية .
٦٥	في يوم الحشر يسأل الإنسان عما دعاه إلى مخالفة خالقه .
٦٦	الإنسان لا يعيش كما يعيش سائر الحيوان .
٦٧	لا يمنع الإنسان من التصديق بالبعث إلا العناد .
٧١	جزاء التطفيف في الكيل والميزان .
٧٣	التطفيف يكون في غير الكيل والميزان .
٧٥	مقالة المشركين في القرآن .
٧٦	لا يكذب بيوم الدين إلا المعتدى الأثيم .
٧٨	ما يقال للكفار يوم القيامة .
٨٠	أعمال الأبرار في كتاب يسمى علمين وأعمال الفجار في كتاب يسمى سجيناً .

الصفحة	المبحث
٨١	أثر النعيم في أهل الجنة .
٨٣	ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين في الدنيا .
٨٤	من شأن القوي أن يضحك ممن يخالفه .
٨٨	الناس في الآخرة فريقان : بررة وفجرة .
٨٩	حين اختلال نظام هذا العالم تمد الأرض ندى الأديم العكاظي .
٩١	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم حاسبني حسابا يسيرا .
٩٢	إتناء الكتاب باليمين أو بالشمال تصوير وتمثيل .
٩٤	إقسام الله تعالى بآياته الباهرات في هذا الكون .
٩٨	الإقسام بما فيه غيب وشهود .
٩٩	تعذيب المشركين للمؤمنين شنشنة قديمة .
١٠٠	حديث أصحاب الأخدود .
١٠٢	ما أعد الله للكافرين من العذاب الأليم .
١٠٤	ما يعظم به الملك في الدنيا .
١٠٦	في قصص أصحاب الأخدود تسلية للنبي وصحبه .
١٠٧	أحوال الكفار متشابهة في كل عصر .
١٠٩	إقسام الله تعالى بأن النفوس لم تخلق سدى .
١١٢	كيفية خلق الجنين ونمو الحمل كما أثبتته العلم حديثا .
١١٤	الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة .
١١٨	في الحديث « كتاب الله فيه نبا من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم الخ » .
١٢١	اسم الله ما يعرف به .

المبحث

الصفحة

- ١٢٣ وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيقربه من كتابه ما فيه تنزيهه .
- ١٢٥ أمره صلى الله عليه وسلم بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم .
- ١٢٦ الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أقسام ثلاثة .
- ١٢٧ وعد من زكى نفسه بالفوز والفلاح والظفر بالسعادة .
- ١٢٩ الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسبته الأجيال من شرائع المرسلين .
- ١٣٤ وصف الجنة وما فيها .
- ١٣٦ إقامة الحججة على النكرين ليوم البعث .
- ١٣٧ ضرب أمثلة دالة على قدرته تعالى .
- ١٤١ نعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار .
- ١٤٣ ذكر قصص الأمم الماضية وما فيها من سلوى لرسوله صلى الله عليه وسلم .
- ١٤٣ الإنسان لا يهتم إلا بشئون الدنيا .
- ١٤٨ توبيخ الإنسان على زجر اليتيم والمسكين .
- ١٥٠ إيثار الناس للحياة الدنيا على الآخرة .
- ١٥١ يندم الإنسان على ما فرط منه حين لا يجدى الندم .
- ١٥٢ وصف يوم القيامة وما فيه من أحداث .
- ١٥٧ خلق الإنسان في عناء .
- ١٦١ الحض على مواسة اليتيم وإطعام المسكين .
- ١٦٣ فعل البر لا يجدى نفعا إلا مع الإيمان واطمئنان القلب .
- ١٦٦ الحكمة في القسم بالشمس والقمر والليل والنهار .

- الصفحة
- المبحث
- ١٦٨ أَلهم الله تعالى النفوس الفجور والتقوى وعرفها حالها .
- ١٧٠ ذكر بعض أخبار الأمم الماضية وما جوزوا به .
- ١٧٤ اختلاف الأجنة في الذكورة والأنوثة دليل على أن واضع النظام عليم بما يفعل .
- ١٧٨ أعذر الله إلى عباده فأبان لهم الخير والشر وأرشد إلى عاقبتهم .
- ١٨٠ الناس أصناف ثلاثة .
- ١٨٢ سبب نزول سورة الضحى .
- ١٨٤ تعداد ما أنعم الله به على رسوله قبل النبوة .
- ١٨٦ مطالبته عليه السلام بشكر هذه النعم .
- ١٨٧ كان صلى الله عليه وسلم كثير الإنفاق على الفقراء عظيم الرأفة بهم .
- ١٨٩ لاخغار أعظم من ذكره صلى الله عليه وسلم في كلمة الإيمان مع العلى الرحمن .
- ١٩١ استخرج النفس ظافرة مهما اشتد العسر إذا اعتصمت بالصبر وتوكلت على ربها .
- ١٩٤ أقسم ربنا بالعهود الأربعة التي كان لها أثر بارز في تاريخ البشر .
- ١٩٧ صدر سورة اقرأ أوّل القرآن نزولا .
- ٢٠٠ نعم الله على عباده .
- ٢٠١ أسباب طفيمان الإنسان .
- ٢٠٥ ما دار من الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل .
- ٢٠٦ أشار القرآن إلى نزول القرآن في أربعة مواضع .
- ٢٠٨ فضل ليلة القدر .
- ٢١٥ النعمى على المسلمين فيما أحدثوا من البدع .
- ٢١٨ علامات يوم القيامة .

المبحث	الصفحة
أقسم الله سبحانه بالخيل ليعلى من قدرها	٢٢٣
نحن نؤمن بالميزان يوم القيامة لكننا لانعرف حقيقةه	٢٢٧
زيارة القبور أعظم دواء للقلب القاسى	٢٣٠
يسأل الكفار عن النعيم الذى كانوا يتمتعون به فى الدنيا	٢٣٢
الدهر خلق من خلق الله تقع فيه الحوادث خيرها وشرها	٢٣٤
الناس فى خسر إلا من اتصفوا بأربع صفات	٢٣٥
سخط الله وعذابه لكل طعان فى الناس أكال للحوم	٢٣٨
قصص أصحاب الفيل كما رواه الثقات	٢٤٢
البعوض الذى أهلك أصحاب الفيل	٢٤٣
تعداد النعم على قريش	٢٤٥
الرياء على ضرب	٢٤٨
أسباب نزول سورة الكوثر	٢٥١
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لتكذيب قومه له	٢٥٧
كان أبو لهب يصد عن الحق وينفر الناس عن اتباعه	٢٦٢
ورد أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن	٢٦٤
سورة الإخلاص تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه	٢٦٤
علمنا الله أن نعوذ به من أصناف من الخلق	٢٦٧
نفي تأثير السحر فى النبي صلى الله عليه وسلم	٢٦٨
الموسوسون قسيان	٢٧١
خاتمة التفسير	٢٧٣
» الطبع	٢٧٤